الباب الثالث

الروم

كلمة فى تاريخهم

سُمِّيَ الروم بهذا الاسم نسبةً إلى رومَةَ، مهدِ نشأتهم، ومَنْبِتِ دَوْحَتهم. ولا نعرف من أمر تأسيس هذه المدينة غيرَ أساطير، ويزعم الروم أنفُسُهم أنها أُسِّسَتْ فى القرن الثامن قبل الميلاد. أسسها رُومِيلوُس على رابية بَلاَتَين وحاطها بسور اختطه بمحراث. وفى أساطيرهم أنهم حينما كانوا يحفرون أساس هذه المدينة، عثروا على رأس رَجل قطع حديثًا ودفن هناك، فعدوا ذلك فألاً حسنًا، وأوَّلوه بأن رومة ستكون رأس العالم فى مستقبل الأيام.

كان بجانب هذه المدينة الصغيرة قرى أخرى كثيرة منبثة فوق الرَّوابى والأكمات المجاورة، وكان يسكنها عصابات متفرقة وجماعات متدابرة، وجميعهم من أصول لاتينية، وقد اختاروا جميعًا أن يتحدوا تحت راية واحدة هى راية رومة، ليكونوا يداً واحدة فى أوقات الشدائد والمِحَن.

الحكومة الملكية

هكذا تكونت الدولة الرومية. وقد كانت حكومتها فى أول نشأتها ملكية، يسوسها رئيس حربى هو الملك، ويعاونه فى الحكم هيئتان عظيمتان، إحداهما مجلس الشيوخ، وكان يتألف من رؤساء العشائر الثلثمائة التى تألفت منها الدولة الرومية. والثانية الجماعة العمومية، وكانت تنتظم جميع الرجال الأحرار الذين لهم الحق فى حمل السلاح والخدمة فى الجيش. وقد دامت هذه الحكومة الملكية نحو مائتين وخمسين سنة، كان الملوك فى

أثنائها ظالمةً طغاةً جبارين . ولما ضاق بهم الأهلون ذرعًا، ولم يعد فيهم صابر على احتمال جوْرهم ، هبوا دفعة واحدة ، فخضدوا من شوكتهم ، وأضعفوا من صولتهم ، وأقصوهم عن البلاد .

الحكومة الجمهورية

تَبَدَّل نظام الحكم ، فذهبت الحكومة الملكية ، وقامت على أنقاضها حكومة جمهورية سنة ٥١٠ ق . م . وبذلك انتقلت حقوق الملك إلى رئيسين ، يُختاران كل سنة لولاية الحكم فى البلاد ، ويسمى كل منهما « قنصلاً » . وقد جرت العادة فى اختيارهما أن يجتمع أبناء البلاد فى يوم معلوم من السنة ، ويخرجون جميعًا إلى ساحة المريخ حاملين أسلحتهم وعددهم الحربية ، وهناك يختارون هذين الرئيسين أو الزعيمين ، حتى اذا تم اختيارهما كان لهما النفوذ المطلق ، والأمر المطاع فى جميع شئون الدولة ، وكان مجلس الشيوخ يمدهما برأيه ، ويشاركهما فى القيام بأعباء الحكم ، غير أن رأيه كان استشاريًّا محضًا ، لا يتقيد به القنصلان ، ولا يلزمان اتباعه . على أنهمـا ما كانا فى وقت من الأوقات يميلان إلى مخالفته ، أو يسيران على غير هديه وإرشاده .

طبقات السكان

كان برومة فى أوائل أيام الجمهورية طبقتان من السكان ، هما الأشراف ويسمون « البطارقة » ، والسُّوقَة ويسمون « البِلِبْيَان » . وكان هؤلاء أذلاء محتقرين ، لا نصيب لهم فى خدمة الحكومة ، ولا فى حضور الاحتفالات الدينية . ولم يكن لهم أن يتزوجوا من الأُسَر الشريفة أو أن يخدموا فى جيوش الدولة ، بل ما كان أحد من الأشراف ليحسبهم فى عداد الشعب الرومى مطلقًا .

ولما تبصر هؤلاء فى شئونهم ، ووجدوا أنهم هم الأيدى العاملة فى الدولة ، وأنهم فى الحقيقة أصل ثروتها وأساس نهضتها ، لم يرضوا البقاء على هذه الذِّلة وهذا الضيم ، فناوءوا الأشراف وغاضبوهم ، وقام من أجل ذلك بين الطبقتين نزاع طويل دام أكثر من مائتين وخمسين سنة ، تخللتها فترات قصيرة سادت فيها السكينة والهدوء . وقد كانت خاتمة هذا النزاع أن هجر البلبيان مدينة رومـة ، واعتصموا بجبل هناك يدعى الجبل

المُقَدَّس . واعتزموا أن ينشئوا لأنفسهم هناك مدينة يستقلون بشئونهم فيها ، فَذُعِرَ الأشراف من أجل ذلك ، وهالهم ما اعتزموا عليه ، لأنهم لا يستطيعون العيش بدونهم . فأرسلوا إليهم يسترضونهم و يطلبون النزول فى الأمر على حكمهم ، فرجعوا إلى المدينة وقد استوثقوا من صلاح أمورهم ، واستقامة شئونهم . ومن ذلك أن تألف مجلس تشريعى من عشرة أعضاء ، عهد إليه فى تنقيح الشرائع الرومية ونَظْمِها فى دُستور ، فتم ذلك فى سنتى ٤٥١ ، ٤٥٠ ق . م . وقد شمل ذلك الدُّستور الجديد جميع الأحكام الخاصة بالثروة والحقوق السياسية والدين .

لم يكن عند الروم قبل ذلك شرائع مكتوبة ، بل كانت قوانينهم مفهومة إجمالاً ، يتلاعب الأشراف فى تطبيقها كيف شاءوا . ولكن مجلس العشرة حين أتم دستوره الجديد ، أمر به فنقش على اثنى عشر لوحًا من البرنز ، ثم علقت هذه الألواح فى الأسواق وصارت الشرائع الجديدة تعرف منذ ذلك الحين بشريعة الألواح الاثنى عشر . قال شيشيرون « كانت شريعة الألواح الاثنى عشر منبع التشريع الرومى بأسره . وقد كان أطفال المدارس بعد أربعة قرون من وضعها يحفظونها عن ظهر قلب »

فتوح الروم و بسط سلطانهم على البلاد

لما استقر نظام الحكومة الجمهورية . وأَنِس الروم من أنفسهم القدرةَ والقوة ، تطلعت أنظارهم إلى الغزو والفتح ، واشرأبت أعناقهم إلى توسيع ملكهم و بَسْطِ سلطانهم على البلاد المجاورة . فغزوا جميع البقاع الخارجة عن ملكهم فى شبه الجزيرة الإيطالى . و بعد جملة من الهزائم والانتصارات تَمَّتْ لهم الغلَبَةُ وأصبح شبه الجزيرة من أقصاه إلى أقصاه يدين لهم بالطاعة والانقياد . ولما تم لهم الأمر فى شبه الجزيرة ، تقدموا فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد إلى ما وراءه ، فاشتبكوا مع القَرْطاجنيين فى الحروب البُونية الشهيرة ، وفتحوا قَرْطَاجِنَّة واستباحوا أهلها أسراً وقتلاً وتشريداً . ولم تكد هذه الحروب العظيمة تضع أوزارها حتى تعلقت آمالهم بفتوح أخرى . فغزوا مقدونية وأذلوا أهلها « سنة ١٦٨ ق . م » وتملكوا بلاد الاغريق « سنة ١٤٦ ق . م » وافتتحوا جزءاً عظيماً من آسيا الصغرى « سنة ١٩٠ ق . م » ، وهذا عداما استولوا عليه قبلُ من

صَقَلِيّة، وسُرِدَانِيَة، وقَرْسَقَة، وأسبانيا، وما دان لهم بعد من بلاد الغال ومصر وغيرها من البلاد الكثيرة الواسعة .

هكذا دانت للروم جميعُ هذه البلاد والممالك الواسعة، حتى أصبح ملكهم يمتد من نهر الفرات شرقًا إلى شواطىء المحيط الإتلنتى غربًا، ومن شمال إنجلترا شمالاً إلى مدار السرطان جنوبًا . وقد أعقبت هذه الفتوحُ تغييراً عظيماً وتبديلاً كبيراً فى الدين والأخلاق ونظام الاجتماع، فالعقيدة الدينية القديمة، والتربيـةُ الساذجة العملية، والمعيشة الخشنة الصعبة، والمُثُلُ العليا التى كانت لهم فى حب الوطن وأداء الواجب، أصبحت جميعها أثراً بعد عين، وأخذت آراء اليونان ومبادئهم فى الدين والفلسفة والتربية وفنون الجمال والتناسق، تأخذ مكانها تدريجًا . ولم يكن هذا كلّ ما حصل من التغيير والتبديل، فقد قامت فى البلاد طائفة جديدة من البطارقة، انتظموا فى سلك الأشراف، واندمجوا فى صفوفهم بما كسبوه من الغنى والثروة، لا بما لهم من شرف الأصل وكَرَم النِّجار . وذهب أيضًا ما لمجلس الشيوخ من النفوذ، وضعف حب الوطن فى النفوس، وانغمس الناس فى الترف والنعيم، وامتلأ القرن الأخير من قرون الجمهورية بمخاصمات ومشاحنات وحروب داخلية، أشعل نيرانها القواد وعظماء الدولة، حبًّا فى الرياسة والجاه، لا رغبة فى الإصلاح، ولا حرصًا على خير البلاد .

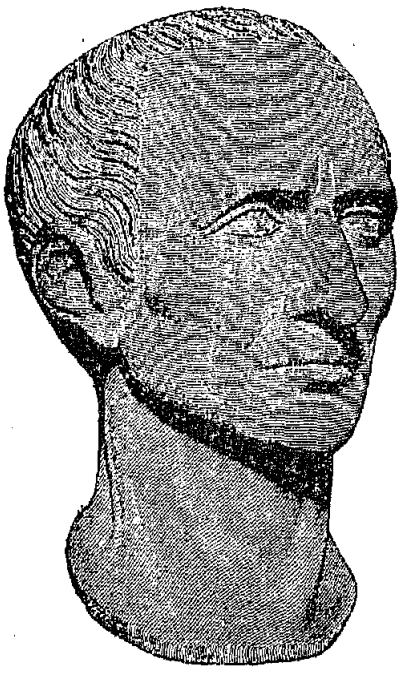

يوليوس قيصر

الحكومة الامبراطورية

لم يَقْوَ النظام الحكومى القديم على احتمال هذا التغيير السريع، فتداعت أركانه، ووهن بنيانه، وفى سنة ٤٨ ق . م نُصِّب البطلُ العظيمُ يوليوس قيصر حاكماً مطلقًا « دكتاتوراً » مستديمًا، بعد أن كُتِبَ له النصرُ فى كثير من الوقائع والحروب . فاغتر بماله من النفوذ والسلطان، وتطلعت نفسه إلى المُلْك، وطمع فى أن يؤسس أسرة

ملَكية يتوارث الحكم فيها الأبناء عن الآباء، فأحس الناسُ أمرَه وعرفوا نيته، فاتمروا به وقتلوه، ثم جاء من بعده خليفته ووريثه أكتَافيوس، فقبض على ناصية الأمور، ونهج فى حكمه منهج الحزم والحكمة، وما زال ينتزع السلطة المتفرقة فى أيدى القضاة والولاة ويخص نفسه بها حتى أصبح كلُّ شىء فى يده، وفى سنة ٢٧ ق.م سنحت له الفرصة التى فرت من مورثه، فصار امبراطوراً، ولقب نفسه بلقب أغسطس، وكان ذلك مبدأ لحكومة الامبراطورية ومنتهى أيام الجمهورية.

العصر الذهبى

حكم أغسطس ٤٤ سنة. وقد اتفق المؤرخون على أن عصره كان أزهى عصور الدولة الرومية، وأرفعها شأناً، فقد وصلت فيه الدولة إلى أقصى غايات المجد العسكرى، وبلغت فيه من التمدين والحضارة وسُمُوّ المقاصد ما لم يكن معروفاً للناس فى هذه الأزمان. ولا غرو فهو العصر الذى أزهرت فيه الآداب، ووُلِدَ فيه المسيح عليه السلام، ونبغ فى غضونه فِرْجيل. وهُورَاس. وأُوفيد. وليفى. وشِيشِيرُون. وكْوِنْتِليان. وغيرهم من الشعراء والمؤرخين والفلاسفة وفرسان الخطابة والبيان.

(أُغسطس)

بقيت رومة أزماناً طويلة وهى تعتمد فى حفظ كِيانها وتثبيت سلطانها على القوة واستعمال السلاح، ولذا عُنِيَت فى أوائل أمرها بتربية الأجسام وتقوية الأبدان. ولما دانت لها الممالك، وعَنَتْ لها الوجوه، وأصبحت فى العالم صاحبة الحول والطول، ابتدأت تُحِسُّ حاجتها إلى الحياة العقلية الواسعة، فأخذ أهلوها يتعلمون اللغة الإغريقية، ويَدْعُون المعلمين الأثينيين للاشتغال

بالتعليم فى رومة ، ويرسلون شبانهم إلى أثينا ليغترفوا من بحار العلم والآداب الزاخرة هناك . وقد بلغ هذا الاتجاه الجديد أقصاه فى العصر الذهبى عصر الامبراطور أغسطس ، وكان من نتائجه انتقال مركز العلوم وتحوله من القصبة اليونانية إلى رومة قصبة الروم .

دور الانحلال والاضمحلال

بينما كانت رومة تتقدم فى حياتها العقلية ، وتزخر فيها بحور العلوم والآداب ، كان الفساد يَنْخِر فى عظامها وعلة الهَرَم تَدِبُّ فى جسمها ، غير أن ذلك قد استمر نحو قرنين وهو جار فى الخفاء لا تبدو آثاره ، ولا تظهر عوارضه ، بل كان الأمر فى هذين القرنين يبدو على العكس لمن لا يمعن فى النظر ولا يدقق فى بحث الأمور ، ففى أيام حكم القياصرة الاثنى عشر ، اتسعت أملاك الدولة ، وامتدت أطرافها . وفى أيام الإمبراطورين الخمسةِ الذين تَلَوْا ، ساد السلم وعم الأمن وكثر الغنى وامتدَّ رُواق المدنية ، غير أن الأمور قد تكشفت بعد ذلك عن حقيقتها ، ففى أواخر القرن الثانى بعد الميلاد اضطرب حبل السياسة ، واختلت شئون الدولة ، ولم يعد الإمبراطورون يَدَّعون الرغبة فى حماية الدُّستور ، أو يتظاهرون باحترام القانون .

نعم ظهر بعض الإمبراطورين المصلحين فى أثناء دور الانحلال ، فانتعشت بهم الدولة ، وتأجل سقوطها النهائى . ومن هؤلاء « دِقْلَدْيانُوس » « ٢٨٤ – ٣٠٥ م » وقسطنطين « ٣١٢ – ٣٣٧ م » . غير أن هذا الانتعاش كان على ما يظهر إيماضة الخفاء ، كما يقع فى الذُّبال المشتعل ، فإنهُ عند مقاربة الانطفاء ، يومض إيماضة توهم أنها اشتعال ، وهى فى الحقيقة انطفاء . فقد كثرت بعدها عوامل الفساد والانتقاض ، وأخذت تظهر فى أتم حالاتها وأجلى مظاهرها ، فأصبح الإمبراطور ظالمًا مستبدًّا يحتكم فى الرقاب والأموال ، ولا يكبح سلطانَه نظامٌ أو قانون ، وأخذ الولاةُ وجباةُ الأموال يظلمون ويستبدون بأهل الأقاليم ، وصار السوقةُ وأوساط الناس يرتفعون الى طبقة الأشراف بالرشوة والمحاباة ، وشرع الأشراف ورجال الدولة يستكثرون من الخدم والحشم ،

و يسيرون فى معيشتهم على البَذَخ والرفاهية . فلبسوا الشُّفُوفَ وأكسية الحرير والقصب وفرشوا البُسُطَ والطنافس المطرزة ، وأكلوا فى صِحَاف الذهب والفضة ، وتأنقوا فى المآكل واستكثروا من المطاعم ، وسايروا الشرقيين فى السرف والترف وحب النعيم ، وقد مات ما كان فى قلوبهم من عواطف الرحمة والحنان ، فلم يعد للفقراء فى أموالهم نصيب ، ولم يعد للضعفاء فيهم مُسْعِدٌ أو نصير . هذا إلى محاباة الدولة إياهم بإعفائهم من الضرائب ، و إقالتهم من المُكُوس ، وتمتيعهم بأنواع كثيرة من الحقوق والمتع التى لم يستمتع بها غيرهم من الناس .

كانت الرعوية الرومية تعد فى سالف الأزمان فخراً يتسابق الشبان إليه ، و يسعون جهدهم فى الحصول عليهِ ، ولكنَّ الحال قد استحالت فى العصور الأخيرة ، فأصبحت هذه الرعوية أمراً بغيضاً ، وعبئاً ثقيلاً ، يتجنبه الناس ، ويسعَوْن إلى الخلاص منه لو كان ذلك ميسوراً . ولا عجب ! فقد كان على الأحرار الذين لم يَتَسَنَّ لهم أن يرتفعوا إلى طبقة الأشراف برشوة أو محاباة ، أن يَمُدُّوا الحكومة والوُلاة والجيوش بالأموال والأرزاق ، و إن استنفد ذلك كل درهم يملكونه . ولما لم تكن للناس بذلك طاقة كانوا يبغون الفِرار من هذه المعاطب بالاندماج فى صفوف الجند ، أو الانتظام فى سلوك الرهبان ، أو اللحاق بخدمة الأشراف والنبلاء .

فناء الدولة الأخير

لم يتأخر فناء الدولة الأخير كثيراً ، ففى سنة ٣٩٥ بعد الميلاد رأى أبناء «تِيُودُوسْيُوس» أن يقتسموا الدولة ، فقسموها قسمين ، الدولة الغربية وقصبتها رومة ، والدولة الشرقية وجعلوا قصبتها القسطنطينية . وقد كان السبب الظاهرى فى هذا التقسيم ، تسهيلَ الأعمال و إصلاحَ الإدارة . أما السبب الحقيقى فهو الاختلاف الجوهرى بين القسمين فى الحضارة وعادات السكان .

أما الدولة الغربية فلم تُعَمَّرْ طويلاً ، فقد طمع فيها الغزاة والفاتحون ، وأخذت

الشعوب الجرمانية تغزوها وتنتزع أملاكها شيئًا فشيئًا . وفى سنة ٤٧٦ م قام القائد الجرمانى العظيم « أُودْوَكْر » فخلع إمبراطورها « رُومِلْيوس أُوغُسْطُلْيُوس » واغتصب الملك منه ، وبذلك انتقل ملك الدولة الرومية الغربية إلى أيدى الجرمان ، ولم تقم للروم فيها بعد ذلك قائمة .

أما الدولة الشرقية فقد تمكنت بفضل مناعة مواقعها من مناجزة أعدائها زمنًا طويلاً ، وقد استمرت معهم فى نضال وقتال ، حتى غزاها الأتراك واستولوا على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م . وبذلك تقوض سلطان الروم ، وانهد ذلك البناء العالى المكين ، والله يَرِثُ الأرض ومن عليها ، ولكل أجلٍ كتاب

التربية الرومية القديمة

كانت مقاصد الروم ومراميهم فى الحياة فى أوائل أمرهم قاصرةً ناقصة . وقد كانت هذه المرامى والمقاصد على نقصها وقصورها ملائمة لهم حين كان ملكهم صغيراً ، وشأنهم غير خطير ، ولما اتسع ملكهم ، وامتد سلطانهم ، وبسطوا نفوذهم على العالم المتمدين ، أدركوا ما فيها من نقص وقصور ، ورأوا حاجتهم ماسةً الى مرامى أرقى ومقاصد أنبل ، فولوا وجوههم شطر الحضارة الإغريقية ، وسارعوا إلى إساغتها ومزجها بحضارتهم . ومن ذلك الحين أصبح لهم فى تاريخ الحضارة والتربية شأو بعيد . غير أن الروم لم يكونوا بذلك الشعب الذى ينتحل حضارة غيره ، من غير أن يهذبها و يُضِيف إليها من ثمار نبوغه ونتائج عَبْقَرِيَّته ما يجعل لها شأنًا أرقى ومرامًا أكمل . ومن أجل هذا كان من الواجب أن نبدأ بالبحث فى أحوال التربية القديمة عند الروم قبل تَعَلُّقِهم بالحضارة الإغريقية ، على الرغم من أن هذه التربية كانت ساذجة قاصرة بعيدة عن مراتب الكمال .

أغراضها

إن أمةً كالأمة الرومية لها من التاريخ والتقاليد والبيئة ما ذكرنا ، لا بد أن تختلف فى مذاهب الحياة وأغراض التربية عن الأمة الإغريقية .

كان الروم فى أول عهدهم مملوئين حماسة وشجاعة ، وكانوا مغرمين بالحياة الحربية ، مفتونين بحب الوطن ، مطبوعين على طاعة القانون واحترامه ، ميَّالين إلى كسب المنافع المادية ، وكان الرجل منهم يرى من واجبه أن يُغْفِل حقوقه الفردية ويتناسى شخصيته حِيَالَ حكومته . وإذْ كان أمرهم على ما ذكرنا لم يكن مُتوقّعًا أن تروق فى أعينهم أغراض الأثينيين من التربيـة ، فلم يَقْصِدوا الى تهذيب القوى الانسانية على وجه منتظم متناسق ، ولم يعبئوا بأمر الجمال أو التناسب ، وإنما جعلوا غرضهم من التربية مقصوراً على كسب الفوائد والمنافع المادية ، وأهملوا ما وراء ذلك . ولذلك كانوا يَسْتَخِفُّون بأنواع الملاهى والملاذ الجميلة ، ويحتقرون ما رقَّ ونَعِمَ من مظاهر الحياة ، ويَعُدُّون الاغريق أهل خيال ورجال أحلام .

غَلَا الروم فى حب المنافع المـادية حتى أثر ذلك فى أخلاقهم ، وأصبحوا هم والأثينيون على طرفى نقيض ، فبينما كان الرجل الأثينى ممتازاً بما فيـه من التَّزَق ، والحركة الفَتِيَّةِ ، والميل الى اللهو وحب الفكاهة ، كان الرومىُّ معروفًا بالهدوء والسكينة والجد والوقار ، والزهد فى مسرات الحياة . لذلك لم يكن عجيبًا أن جاءت التربية الرومية عملية محضة ، ترمى إلى أغراض مادية صرفة .

وسائطها

« ١ » الاسرة « ٢ » الحياة العامة : لم يكن للمدارس وجودٌ عنـد الروم الأقدمين قبل ابتدائهم فى مجاراة الإغريق ومحاكاتهم إياهم فى نُظُم التربيـة والتعليم . وقد كانت التربية عندهم فى أوائل أمرهم لا تعدو تمرين الأحداث وأخذَهم أخذًا عمليًّا بأنواع خاصة من الكفايات والفضائل التى تتضمنها الأغراض الرومية ، وتنطوى عليها الحياة العامة . وقد كانت الأسرة أهم وسائطهم وأعظم وسائلهم فى هذه التربية ، وهذا هو السر فيما كان للأسرة من المنزلة الرفيعة بين معاهد التعليم الرومية القديمة .

كان الروم على العكس من الإسبرطيين والفلاسفة الأثينيين يرفعون من شأن الأسرة وينظرون إليها نظرهم إلى الأشياء المقدسة ، وكان نفوذ الأب على بنيه وبناته عندهم

يمتد إلى ما بعد بلوغ الولد سن الرشد ، وإلى ما بعد ارتباط البنت بعهود الزوجية . ولم يكن شأن الأم فى الأسرة بأقل من شأن الأب فيها ، وما كان سلطانها على بنيها بأضعف من سلطانها على بناتها . كانت فى أول نشأة أولادها تأخذهم جميعًا بالتربيتين البدنية والخلقية ، من غير تفرقة فى ذلك بين البنين والبنات . ولكن الولد متى ترعرع فارق أمه وصَحِبَ أباه فى غدواته وروحاته، ولازمه فى وحدته ، وحين يجتمع بإخوانه وزملائه، فأخذ عنه وعمن يراهم معه من الرجال كثيراً من العادات والأخلاق ، واكتسب منهم بالتقليد والمحاكاة ما اتفق له من أنواع الأعمال والكفايات . أما البنت فطريقها فى التعليم لا يَعْدُو محاكاة أمها فى أخلاقها وعاداتها وما تأتيه من شئون المنزل وأعماله :

إذا كان الولد ذا أسرة شريفة عريقة فى المجد ، كان مجال التهذيب أمامه فسيحًا ، فانَّ أباه فى كل صباح يستقبل أتباعه وحاشيته على مرأى منه ، فيأمر وينهى بينهم ويبذل لهم ما يبذل من نصح وإرشاد . وبذلك يتيسر للولد أن يتعود كثيراً من العادات الرومية ، ويتعلم بعض النظم والقوانين المرعية فى البلاد . كذلك باصطحاب والده إلى الولائم والمنتديات يرى فى أحاديث الرجال الذين يجتمع بهم ما يبصره بأحوال المعيشة وشئون الحياة . وقد يتفق له بذلك أيضًا أن يتخرج فى الصناعات الراقية ، والأعمال العالية التي يحترف بها والده ورفاق والده ، وذلك كالأعمال الحربية والقضائية والسياسية .

أما إذا لم تكن أسرة الولد بذات مكان رفيع فى الشرف والمجد فحظه من التثقيف والتهذيب قليل، إذ ليس أمامه فى هذه الحال إلا أن يصحب أباه فى الحقول أو المصانع ، ليتخرج فيما يزاوله من الصناعات والحرف

هذا شأن الولد فى حاليه . أما البنت فانها فى الحالتين تلازم منزلها ، وتنقل عن أمها ما فيها من طباع وعادات ، وتأخذ عنها ما تحسنه من أعمال المنزل وصناعاته ولا سيما غزل الصوف وحياكة الثياب .

كانت الأسرة الرومية القديمة تقوم مقام المدرسة فى التهذيب ، وتغنى غَنَاءها فى تعليم

كثير من الفنون والعلوم ، فقد كان الأطفال الروميون يأخذون عن آبائهم وأمهاتهم القراءة والكتابة ويحفظون عنهم الاقاصيص التاريخية وسيرَ العظماء والأبطال ، وكذلك الأناشيد والأغانى الحربية والدينية . ولما تم تلخيص القوانين الرومية فى الاثنى عشر لوحًا أصبح تعليمها للغلمان ضروريًّا . وقد كانت الألعاب أهم وسائل التربية البدنية وكانوا يختارون منها ما يشابه ضروب الصناعات وأعمال الحياة المستقبلة ، لتكون عونًا للأطفال على حذقها والنبوغ فيها . وقد كانت التمرينات البدنية النظامية عندهم لا يقصد بها إلا إعداد الفتيان والغلمان للأعمال الحربية والحياة العسكرية ، ولم يخطر لهم ببال أن يتخذوها كما اتخذها الإغريق وسائل لتعديل الأجسام ، وتعويدها جمالَ الحركة وسرعةَ التَثَنِّى وحسنَ الانعطاف ، فان هذه الأغراض ما كانت لتجوز فى أذهانهم ، أو لتستحق فى نظرهم شيئًا من العناية والاهتمام .

أما الآداب والرقص والموسيقى والتصوير ، وما إلى ذلك من الصناعات والفنون الجميلة التى كان الإغريق يُغْرَمُون بها إغرامًا ، فقد كانوا يزدرونها ويعدون الاشتغال بها إسرافًا فى الأوقات وتضييعًا للأعمار

(٣) الدين : — كذلك كانت الشعائر الدينية التى تقام فى المنازل وفى الأماكن العامة وسيلة عظيمة من وسائل التربية والتهذيب . ولا غرو فقد كان الروم يدينون بأن لكل عمل فى الحياة إلها خاصًّا به ، يتولاه ويُشْرِف عليه ، فللحرث إله ، وللبذر إله ، وللحصاد إله ، ولجنى الثمار إله ؛ وكل واحد من هؤلاء الآلهة يجب استعطافه واسترضاؤه عند أداء العمل الذى له الإشراف عليه . كذلك كان للولادة إله ، وللزواج إله ، وللموت إله ، تجب طاعته وعبادته فى الأوقات الملائمة بالليل أو النهار . حتى لقد كان «المُشْتَرِى» أعظمُ آلهتهم لا يُمثَّل عندهم إلا الرجولةَ الرومية ، كما كانت «جُونُو» لا تمثَّل إلا الأنوثةَ ، وكما كان «المريخ» ثانى آلهتهم فى العظمة لا يسيطر إلا على الحروب . وهكذا كان لكل إله عمل خاص يشرف عليه ، ولا يُسأل غيره فيه . وهذه ديانة لا يستطاع عدُّها بين الديانات الراقية ، بل لا تكاد تَفْضُل ديانات الأمم المتوحشة ،

غير أنه لا يصعب على العاقل أن يرى ما لها من عظيم الأثر فى إصلاح نفوس القوم . فقد كانت عاملة على حفظ أخلاقهم ، وإحياء ضمائرهم ، وإبقاء ذممهم صالحة طاهرة . وهذه الديانة على الرغم من أنها كانت من أوضاعهم ولم ينزل بها كتاب ، كان لها أثر عظيم فى توثيق عرى المودة بين أفراد الأسرة ، وفى انمـاء الروح الوطنى ، وتقوية الإحساس بالواجب ، وإكساب القسم صبغة التقديس .

كان الطفل أول ما يَعْرِفُ دينه ، يعرفهُ فى منزله حيث تقدم النذور وتقام الصلوات لآلهة الأسرة . وذلك أنهُ كان لكل أسرة رومية آلهة خاصة بها ، عدا الآلهة العامة التى تشترك فى عبادتها جميع أفراد الأمة ، وقد كانت آلهة الأسرة هذه تنقسم قسمين آلهة موتاها ، وآلهة أحيائها . فأما آلهة الموتى فكانوا فى اعتقادهم حُمَاةَ ما تملكه الأسرة من أرض وعقار ، وأما آلهة الأحياء فكانوا حُرَّاسَ ما لها من مؤَنٍ وذخائر . وكانت كل أسرة تَنْصب محرابها بجانب المَوْقِد فى المنزل وتضع فيه تمثال جدها الأكبر بين تمثالين من تماثيل أحيائها ؛ وعلى رئيس الأسرة أن يقود أهله إلى حيث هذه التماثيلُ أو الالهة فيصلى بهم ، ويقرّب القرابين . يفعل ذلك كل صباح ، ويفعله أيضًا فى احتفالات الزواج . وأيام الأعياد ، وعند عودة الغائبين من أسفارهم الطويلة ، وكذلك عند ما يخلع أحد صبية الأسرة لباس الطفولة ويستبدل بهِ رداء الرجولة .

إن ما قدمناه عن التقاليد الدينية فى الأسرة يجرى مثله فى الدولة والعشيرة معًا . فما العشيرة فى نظر الروم إلاَّ أسرة مكبرة لها محراب وقرابين مشتركة ، وما الدولة إلاَّ مجموع العشائر متضافرةً متآزرةً تشترك فى القرابين والصلوات العامة . فللأسرة إذًا ثلاثة محاريب ، محرابها الخاص ، ومحراب عشيرتها ، ومحراب الدولة العام . ولها أيضًا مثل ذلك من القرابين .

لم تكن الديانة الرومية على ذلك أمراً من الأمور الفردية ، ولكنها كانت رسمًا من الرسوم الدولية العامة التى تعمل على توثيق العلائق والروابط بين الأسرة والدولة ، أو بين الحكومة والأفراد ، ومن ثم كان منصب القسيس الأعظم يسند إلى المَلك فى

طورِ الملكية ، و إلى ممثل الدولة فى طور الجمهورية . وقد كانت إقامة الشعائر الدينية تُعَد من أعظم الوسائل فى غرس محبة الوطن فى نفوس الأحداث والشبان .

أثرها فى الأخلاق

مما تقدم نرى أن التربية عند الروم الأقدمين كانت عملية، كما كانت إلى مدى فسيح صناعيةً ترمى إلى تخريج الأحداث فى الحرف والصناعات المختلفة ، وتعمل على تخريج آباء قادرين ، وجنود باسلين ، ورعايا مخلصين . كانت على نقص مقاصدها وقصور مراميها ذات أثر بين فى تقوية الأبدان وتثقيف العقول ، وغرس الجد والوقار والطباع الساذجة فى النفوس . وكانت فوق ذلك تطبع الأحداث على احترام الآلهة وحبّ الآباء والأمهات ، وطاعةِ النُّظُمِ والقوانين المرعية فى البلاد ، وتبث فيهم خلق الشجاعة وتحبب إليهم الفلاحة ومختلفَ الصناعات .

ومن تأمل فى الفضائل العملية التى كان الروم الأقدمون يرمون إليها فى تربية الأحداث ، وجدها جميعًا ترجع إلى ست ، أولها التقوى ، وينطوى تحتها احترام الآباء وحب الوطن وعبادة الآلهة . والثانية قوة الخلق أو الشهامة ، وهى من الفضائل التى غالى بقيمتها الروم وظهرت فى رجالهم أكثر مما ظهرت فى غيرهم من رجال الأمم القديمة . والثالثة الجد والوقار وهم بهذه الفضيلة يخالفون الإغريق الذين امتازوا بالفكاهة والظرف . والرابعة الشجاعة ويدخل تحتها التحمل والصبر على المكاره . والخامسة الحزم فى تدبير الشئون وتصريف الأمور . والسادسة الأمانة فى المعاملة . وزاد بعض الكتاب فضيلة سابعة هى الحياء

طرائقها وأساليبها

لم يكن التلقين طريقة من طرق الروم الأقدمين فى كسب الفضائل والكفايات ، وإنما كانوا يعتمدون فى ذلك على طرق اتفاقية غير نظامية ، يرجع جميعها إلى طريق واحد هو التقليد والمحاكاة ، وهو طريق محمود أطراه كتابهم وخطباؤهم فى مواقف عدة،

ومما يؤثر فى ذلك عن شِيشِيرون الخطيب الرومى الذائع الصيت قوله «طريق النصح والإرشاد فى التعليم طويل أما المثال الصالح والقدوة الحسنة فطريقهما قصير شديد التأثير»

ولما كانت هـذه الطريقة لا تخرج عن أن يقتدي الإنسان بمثال من الأمثلة الحية التى يستطاع الوصول إلى ما وصلت إليه ، كان مجال الإنسان فيهـا لإثبات شخصيته و إظهار حريته وحسن تصرفه أفسح مما فى الطرق الشرقية التى تقضى بمتابعة النصوص المقدسة متابعة حرفية ، ولكنها على الرغم من ذلك لا تضارع الطريقة الأثينية ، التى قوامها أن يتشرب الإنسان مبادىء العلوم والآداب ، و يتذوق أسرار الفنون والصناعات الجميلة حتى تمتلئ بهـا نفسه وتتهذب بها روحه ، فيتسع بذلك أمامه مجال الحرية ، و ينفسح له ميدان الحياة .

ومن مآخذ الطريقة الرومية أن التمرينات العملية التى كانت تتبع فى تحصيل الكفايات والفضائل لم تكن لتشفع بشىء من الشرح والبيان على خلاف ما كان الإغريق يفعلون فى تمريناتهم ، و بهذا جاءت طريقتهم فى التمرين محجوبة الأسرار غير معقولة

مثالها

كانت تربية الروم الأقدمين التى وصفناها ذات أثر بين فى تخريج رجال ذوى بأس فى الحروب ، واخلاص فى حب الوطن ، ولكنها مالت بهم إلى الأثرة والتكبر والغلظة والميل إلى السلب والنهب والمغالاة فى تقدير النتائج قبل الإقدام على العمل ، ولم يكن لهم فى يوم من الأيام مبادئ سامية ، أو مَرَامٍ راقية فى الحياة .

كانت هذه التربية صالحة لهم حين كان ملكهم صغيراً وعددهم قليلاً كما أسلفنا ، ولكن لما اتسع سلطانهم وكثر عديدهم وأصبح نفوذهم يعم شبه الجزيرة الإيطالى جميعه ، لم يبق لهذه التربية صلاح أو غناء ، ولذلك انبعثوا من غير قصد يتلمسون نوعاً آخر من التهذيب أفسح مدى ، وأبعد غاية .

وعلى الرغم من أنهم كانوا يتهمون الإغريق بأنهم قوم خيال ورجال أحلام كما اتهمهم الإغريق بأنهم وحشيون بعيدون عن مرامى المدنية الراقية ، لم يستطيعوا أن

يغالبوا ما داخلهم من الإحساس القوى بأن رغائبهم العالمية وآمالهم الدولية ، لا سبيل إلى إدراكها إلاّ باعتناق مبادئ الهيلانيين ومقاصدهم فى الحياة . على أن هذه المبادئ والمقاصد الساميــة التى وضعها الهيلانيون لم يقدر لها نجاح ولم تصر ذات صلة وثيقة بالحضارة إلاّ بعد أن ساغتها العقول الرومية وتعهدتها بأنواع الإصلاح والتهذيب .

التربية الرومية الإغريقية

اساغة الروم تهذيب الاغريق

كان انتقال التهذيب الإغريقى إلى رومة تدريجًا . وهناك من الدلائل ما يفيد أن هذا الانتقال بدأ منذ أزمان بعيدة جدًّا ، فقد كان للإغريق فى صَقَلِّيَة مستعمرات واسعة قبل تأسيس رومة ، وقد رحل الولاة العشرة[1] على ما يقال فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى البلاد الإغريقية ، لاستشارة ذوى الرأى هنــاك فيما أرادوا سَنَّه من القوانين والشرائع . ولكنَّ هذا التهذيب لم ينتشر فى البلاد الرومية إلاّ بعد أن ذاع فى بقاع كثيرة من العالم ، بفضل ما قام به الإسكندر من الفتوح فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد .

على أنه على الرغم من وفرة العلاقات التجارية والسياسية بين البلدين فى هــذه الآونَة ، لم يكن التأثير الإغريقى فى الحياة الرومية عظيماً ، ولكن الحال قد تغيرت بعد ذلك سريعًا ، فما كاد يتم للروم إذلال القرطاجنيين فى القرن الثالث قبل الميلاد ، حتى فشت فى البلاد المبادىء والمقاصد الاغريقية . وقد زادت فُشُوًّا وانتشاراً بعد سقوط الدولة المقدونية سنة ١٦٨ ق . م . ومن دلائل تقدم هذه الحركة فى هذه الآونة ما ناله « كْراتِس » الفيلسوف الرواقى الاغريقى فى هذه البلاد من أنواع العطف وصنوف التشجيع . جاء هذا الفيلسوف إلى رومة سفيراً سنة ١٦٧ ق . م ، ثم أصابته نائبة بَقِيَ من أجلها فى رومة طول حياته ، فعطف عليه الروم ، واستمالوه إلى إلقاء

(١) كان للروم الاقدمين مجلس مؤلف من عشرة ولاة لهم السلطة المطلقة فى حكم البلاد وسن القوانين

محاضرات فى الآداب الاغريقية ، ورغبوه فى تعليم شبانها ، فلبى الدعوة وأقبل على التعليم ، فكان بذلك أول معلم إغريقى فى رومة . ثم جاء بعده آخرون نزحوا من بلادهم ، فأكرم الروم وفادتهم ، وأقبل عليهم الشبان والغلمان يستمعون إليهم و يأخذون عنهم ، و بذلك انتشر التهذيب الاغريقى فى البلاد .

لم يُقدَّر لهذه الحركة أن تسير سيرها فى البلاد دون أن تقام فى طريقها العقبات والصعوبات ، فقد نشط لها أعداء الجديد من كتاب الروم ، وأخذوا ينفِّرون الناس منها ، ويدعونهم إلى الاحتفاظ بقديمهم . ومن هؤلاء « كَاتُو » فانه حين رأى ما ناله التهذيب الاغريقى فى البلاد من المعاضدة والتأييد ، أحس أن من واجبه أن يحاربها ، و يَصُدَّ الناس عنها ، فكتب مقالا فى الطرق التى يجب اتباعها فى تربية الأطفال ، عاب فيه البدع الاغريقية التى غزت البلاد ، وأطرى الطريقة العملية القديمة التى تُعِد الشبان ليكونوا جنوداً ، أوزراعا ، أو خطباء .

بقيت العقبات تقام فى طريق انتشار المبادىء الاغريقية ، و بقيت معارضة المحافظين قوية ، حتى إذا مات كَاتُو سنة ١٤٨ ق . م ، وفتح الروم بلاد الاغريق بعد ذلك بسنتين ، سَهُل الطريق ولم تبق فيه عقبة قائمة ، فنزح الاغريق إلى رومة زمراً زمراً ، وانطلقوا ينشرون بين أهليها ما لهم من فلسفة ودين وصناعة وعلم وأخلاق وتربية . وحينئذ أدرك الروم أنهم لا يستطيعون منافسة هذا التهذيب الجديد ، ولا يقْوَوْن على الوقوف فى تيار سيله الجارف . على أنهم حين رأوا أن ليس هناك تهذيب سواه يلائم أغراضهم ورغائبهم العالَمية ، رحبوا به وسارعوا إلى قبوله ، ولم يمض غير قليل حتى ساغوا جميع ما للإغريق من المبادىء والمقاصد السامية فى الحياتين العقلية والسياسية . وقد تم لهم ذلك فى أوائل القرن الأول قبل الميلاد . يشهد لذلك ما يقوله شِيشِيرون من أن التمرين العملى القديم كان قد اختفى جملة فى الأيام الأولى من حياته . وقد يستطيع الإنسان أن يدرك كيف كان هذا التغيير تاماً كاملاً ، متى وازن بين التربية العملية الساذجة القديمة التى دافع عنها كَاتُو وأطراها فى رسالته الآنفة الذكر ، و بين

التربية الجديدة التى وصفها « ڤَارُو » فى رسالة أخرى ، وأتى فيها على ذكر العلوم المدرسية التى كانت تشمل جميع ما للإغريق من نحو وصرف وبلاغة ومنطق وحساب وهندسة وموسيقى وفلك وطب .

بقى هذا النوع الجديد من التربية سائداً فى رومة من غير أن يَمَسَّه تعديل يذكر ، حتى أواخر القرن الثاني من الميلاد ، حين أخذ الفساد يسرى وشيكا فى هيكل الدولة الرومية . فاذا راعينا هذه النهاية وراعينا معها ماتقدم لنا عن بُداءته ، استطعنا أن نقول : إن نوعًا جديداً من التربية ذا صبغة إغريقية قد انتشر فى بلاد الروم ثلاثة قرون متتابعة ، تمتد من أوائل القرن الأول قبل الميلاد إلى أواخر القرن الثانى بعده ، وقد أنتجت هذه التربية فى القرون الثلاثة المذكورة أنواعًا أربعةً من المدارس سيأتى تفصيلها

مدارس التربية الرومية الاغريقية

يستقى المؤرخون معارفهم الخاصة بهذه المدارس من جملة مصادر ، منها الرسالة التى صنفها « كُوِنْتِلْيَان » فى أصول الخطابة ، وضمنها على الرغم من عنوانها وصفًا مسهبًا لجميع المدارس الرومية الإغريقية ، وعالج فيها جميع مراتب التربية المنتشرة فى بلاد الروم فى عصره . ومنها رسالتان للكاتب الرومى الشهير « سِيُوتُونْيُوس » ، إحداهما فى النحاة ، والثانية فى البلغاء . ومنها رسالة « شِيشِيرون » التى عنوانها الخطيب . ومنها رسالة « تَاسِتَس » وعنوانها محاورة فى الخطباء . وتكاد هذه الرسائل تكون كل المصادر التى يرجع اليها المؤرخون فى استنباط معارفهم الخاصة بالتربيـة الرومية الإغريقية ومدارسها

والباحث فى هذه الرسائل يرى أن التربية الإغريقية المُفْرَغَةَ فى القوالب الرومية والتى انتشرت فى القرون الثلاثة الآنفة الذكر ، قد أنتجت أربعة أنواع من المدارس إغريقية الصبغة ، وهى المدارس الابتدائية ، والمدارس الثانوية ، والمدارس العاليـة ، والجامعات .

(١) المدارس الابتدائية

يذهب بعض المؤرخين إلى أن نشأة المدارس الابتدائية فى رومة ترجع إلى ماقبل ابتداء التربية الرومية الاغريقية بزمن طويل جدًّا . ويستدلون على ذلك بما قَصَّهُ « لِيفِي » المؤرخ الشهير فى أخباره من أمر « فِرْجِينْيَا » حين اختطفها أحد الولاة العشرة وهى فى طريقها إلى المدرسة على ما يزعمون . وهى رواية محوطة بكثير من الشكوك . وعلى فرض صدق الرواية وصحة ما تستلزمه من وجود هذه المدارس فى ذلك الزمن السحيق ، لم يكن هناك ريب فى أنها لم تكن سوى معاهد حقيرة ، أنشئت لمعاونة المنازل فيما تقوم به من أعمال التربية . على أن هناك من الدلائل ما لايَدَعُ محلاًّ للشك فى أنها كانت وسائل لهو وتسلية ، أكثر مما كانت وسائط تعليم وتربية

مواردها الدراسية

أيا كان زمن ابتداء نشأة هذه المدارس ، فالراجح أن مواد الدراسة فيها لم تتعد فى ذلك الوقت القراءة والكتابة والحساب الأوَّلى ، على نحو ما كان جاريًا فى التربية المنزلية . ولما كان تعليم هذه المواد فى هذه المدارس آتيًا من طريق الأقاصيص التاريخية والأناشيد الدينية وشريعة الألواح الاثنى عشر ، أسماها الناس أيضًا مدارس معلمى الآداب .

بدأت هذه المدارس كما رأيت بصبغة أدبية ، وقد ازدادت هذه الصبغة على مَرِّ الأيام بنمو النفوذ الاغريقى وتأثير النهضة الأدبية التى انتشرت فى البلاد بفضل المنشآت والمؤلفات اللاتينية التى أنتجتها القرائح اليونانية . ففى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، نَقَلَ « لِيفْيُوس أندرُونِيكُوس » إلياذة هومِيرُوس من اللغة الاغريقية إلى اللغة اللاتينية ، وفى نحو هذا الوقت أيضًا ، هب جمع من الأدباء الاغريقيين ، منهم « نِيفْيُوس » و « إِنْيُوس » و « بَاكُوفْيُوس » و « إِيلُوتُوس » و « تِرِنْس » وقرضوا باللاتينية الشعر القصصى والتمثيلى والحماسى على مثال الشعر الاغريقى المتين ، وما كاد

بحر هذه الآداب اللاتينية يزخر فى البلاد الرومية حتى اغترفت منه مدارسها الابتدائية ، وتأثرت مواد الدراسة فيها تأثراً بيّناً ، فقد ضُمّنت مناهجها مختاراتٍ مطولةً من هذه الآداب الجديدة ، واستبدلت فيها الياذة هوميروس المنقولة إلى اللاتينية ، بشريعة الألواح الاثنى عشر .

طرقها فى التدريس

فى هـذه المدارس الابتدائية كان الأطفال يُلَقَّنون أولاً أسماء الحروف الهجائية وترتيبها المعروف ، من غير التفات إلى وظائفها وأشكالها . وقد عاب كِوِنْتِلْيان هذه الطريقة فقال « إنها تعوق التلاميذ عن إدراك الحروف وتمييز بعضها عن بعض ، فانهم فى حين اشتغالهم بحفظها لا يوجهون شيئاً من عنايتهم إلى أشكالها وصورها ، . . . . . إن خيراً من هذه الطريقة أن يتعلم الأطفال أسماء الحروف وصورها فى وقت واحد ، كما يتعلمون أسماء الرجال وصورهم فى وقت واحد » .

كان الأطفال بعـد حفظ أسماء الحروف بترتيبها المعهود ، و بعد معرفة أشكالها وصورها ، يأخذون فى ضم بعضها إلى بعض ، و يؤلفون منها جميع مايستطاع تأليفه من المقاطع وأجزاء الكلمات ، حتى إذا حذقوا ذلك انتقل بهم المعلم إلى تعليم القراءة والكتابة بما يمليه عليهم من التمرينات ، وقد اضطرتهم ندرة الكتب وغلاء أثمانهـا إلى الاقتصار على طريقة الاملاء فى التعليم زمناً طويلاً ، حتى إذا كانت أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حين استطاعوا استخدام كثير من العبيد كُتّاباً ونساخاً ، كثرت الكتب فى أيديهم ، واستطاع كل تلميذٍ فى المدرسة أن يكون له كتاب .

وقد كان المعلمون فى تعليم القراءة يعنون عناية عظيمة بصحة النطق ووضوحه ، حتى لقد كانوا لهذا الغرض يتخيرون تمرينات وجملاً مركبة من كلمات صعبة النطق ، و يمرنون تلاميذهم على نطقها نطقاً صحيحاً واضحاً . كذلك كانوا يعنون بجودة الإلقاء وحسن الأداء على نحو ما يرشد إليه رجال التربية فى هذه الأزمان .

وأما الخط فقد كان الأطفال يتعلمونه بالنقل من النماذج الموضوعة ، و بِجَرِّ المُلمُول

فوق الحروف المنقوشة فى ألواح الشمع . و إذا كان التلميذ مبتدئًا بالغ المعلم فى معاونته ومساعدته ، فأمسك بيده وهداها فى أثناء الكتابة . ولم يقتصر التلاميذ على الكتابة فى ألواح الشمع ، بل كانوا يكتبون فى بعض الأحيان على الرقوق المتخذة من جلود الحيوان.

وكان الحساب فى هذه المدارس أوليًّا محضًا ، ومما ساعد على جعله كذلك أن الأعداد الرومية كانت ثقيلة صعبة التَّعَلُّم . وقد كان الأطفال يتعلمونه بالعد على أصابعهم،

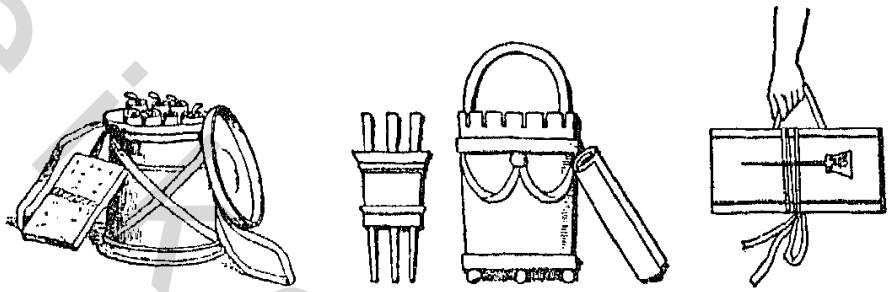

(ا) (ب) (حـ)

صور أدوات مدرسية رومية ، وهى منقولة عن نقوش فى حائط : (ا) لوح شمعى ومعه ملمول مربوط به (ب) ثلاثة ملاميل وجعبة وقرطاس ملفوف مسند اليها (حـ) لوح شمعى وجعبة تشتمل على قراطيس ملفوفة

و يستخدمون الحصى فى ذلك أيضًا ، وإذا تقدموا قليلاً استخدموا لوح الأعداد ، وهو لوح فوقه قليل من الحصى أو الرمل ، ولعل لوح الأعداد الذى يستعمل الآن فى مدارسنا مأخوذ عنه . فاذا تقدموا فوق ذلك اشتغلوا بحل المسائل الحسابية على ألواح الشمع . وهناك من الدلائل ما يدل على أن الحساب كان له معلمون إخصائيون يعلمونه فى هذه المدارس الابتدائية ، كما يعلمونه أحيانًا فى مدارس خاصة ينشئونها بأنفسهم لتعليمه.

النظام المتبع فيها

بقيت طريقة التعليم فى المدارس الابتدائية الرومية زمنًا طويلاً وعمادها الحفظ والتقليد ، ففى تعليم الحروف الهجائية مثلاً ، لم يكن للحدث إلا أن يكررها ويكرر المقاطع المركبة منها ، بصوت جهورى مرتفع ، ويجهد نفسه فى ذلك حتى يتم له استظهارها. وتلك طريقة على ما ترى خالية من أنواع التشويق والترغيب ، ولا تتفق هى وطبائع الأطفال فى شىء . لذلك عول المعلمون على السياط والعصى فى حمل تلاميذهم على الانتباه

والإقبال على الدرس ، ولقد غالوا فى ذلك حتى أصبح اسم المعلم عند الروم يدعو إلى الذهن معانى الخوف والرعب ، ويذكّر بصنوف الارهاب والتعذيب . ولو أنك قرأت كتب الآداب اللاتينية ، لم تكد ترى فيها اسماً من أسماء المعلمين غير مشفوع بصفة من صفات الخشونة والغلظة . وإن تجاوزت كتب الآداب الى النظر فى الصور والنقوش، تَمثَّل لك المعلم فى قسوته وظلمه ، واعتبر ذلك بالصورة التى عثروا عليها فى « هِرْكُلَنِيُوم » فانها تمثل غلاماً بائساً يشده غلامان شديدان ، والمعلم بينهما قائم يمثل دور الجلاد الذى ليس فى قلبه شفقة ولا رحمة

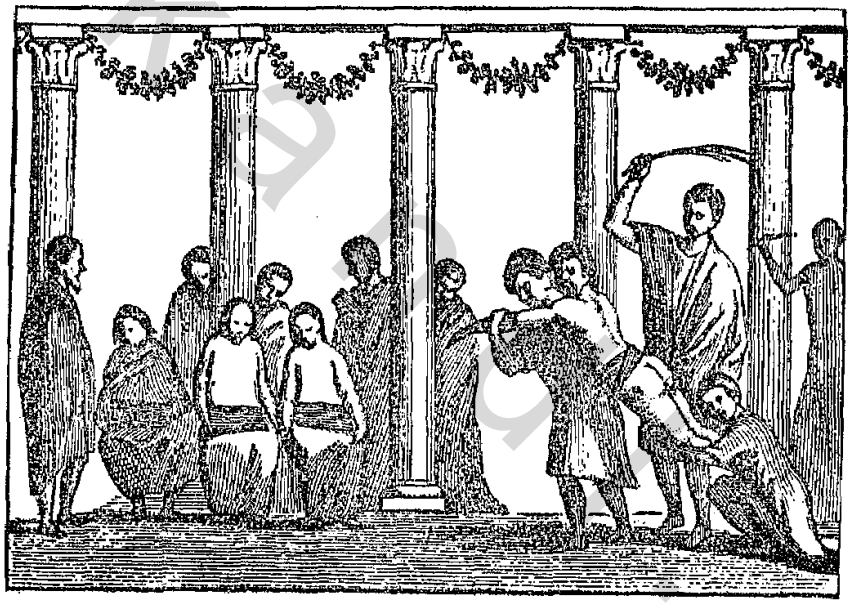

منظر فى إحدى المدارس الابتدائية الرومية يمثل قسوة المعلمين
وهو منقول عن نقش فى هِرْكُلَنِيوم

ولقد عاب كُوِنْتِلْيان أكبرُ رجال التربية فى ذلك العصر هذا النظام القاسى وقال : «أنا لا أرضى بالعقوبات البدنية، ولا أنصح باستخدامها وسيلة من وسائل التعليم فى المدارس على الرغم من أنها عادة موروثة، وعلى الرغم من أن شيخ الفلاسفة الرواقيين « كْرِيسِيبُوس » لا يرى فيها بأساً ، فانها عقوبات العبيد ، وفيها للأطفال ذِلَّةٌ ومهانة ، ومن جهة أخرى فان الطفل اذا كان خسيس الطباع لا يؤثر فيه التوبيخ ، ولا يردعه التأنيب ، فان العقوبات البدنية لا تزيده الا تبلداً وجموداً ، على أن الطفل إذا وجد بجانبه من يبصره

بالواجب و يستميله دائمًا الى العمل، لم تكن به حاجة الى هذه العقوبات القاسية ».

بقيت العقوبات البدنية طول أزمان التاريخ الرومى وعليها المعول فى حمل الأطفال على الانتباه والجد فى الدروس ، ولكنَّ نظامًا آخر أميل الى اللين والرحمة قد وجد طريقه الى المدارس فى أيام أُغُسْطُس ، حين أخذ المربون يستميلون الأطفال و يرغبونهم فى العمل بالهدايا والمكافآت . وقد كانت هذه المكافآت فى الكثير كتبًا ، وكانت فى بعض الأحيان أنواعًا من الحلوى ، وصنوفًا من الكعك والرِّقاق .

كفايات معلميها ومنزلتهم فى الناس

مما تقدم لا يصعب علينا أن ندرك أن رقيم معلمى المدارس الابتدائية بين الناس كانت حقيرة وضيعة ، ولا غرو فقد كانوا عادة من طبقة العبيد والمُعْتَقين ، ولم يكونوا ليحتاجوا فى مباشرة أعمالهم إلى ترخيص أو إلى كفايات خاصة ، ولذلك كانوا يقنعون بالعطاء القليل والأجر الزهيد .

وقد سرت إلى الروم تلك العادة الاغريقية التى كانت تقضى بأن يخصص للطفل عبد يلازمه ليلاً ونهاراً ، و يصحبه فى ذهابه إلى المدرسة وعودته منها ، ليشرف على عاداته وأخلاقه ، وليحفظه من الزلل فى سيره وسلوكه ، ولكن الروم كانوا أشد عناية وأكثر حيطة من اليونان فى اختيار هذا الرقيق واتقائه ؛ على الرغم من أنهم كانوا يختارونه عادة من المستضعفين الذين طعنوا فى السن ، أو قعدت بهم عاهات جسمية . وبينما كان الاغريق يسمون هذا الرقيق معلمًا أو مربيًا ، كان الروم فى أكثر الأحيان يسمونه حارسًا أو خادمًا ، وقد كان من المألوف أن يكون هذا الحارس إغريقيًا ليتسنى له بجانب إشرافه على سلوك الطفل أن يعلمه مبادئ اللغة الإغريقية . كذلك كان من المألوف أن الحارس متى أتم واجبه وانتهى عمله ، عَتَقَهُ سيده وأطلقه حراً .

أبنيتها وأوقات العمل فيها

لم يعن الروم بإقامة أبنية خاصة بالتعليم على النحو الذى نألفه الآن ، وإنما كانوا يتخذون مدارسهم الابتدائية فى حجرة منعزلة من منزل ، أو فى ظُلَّة أو صُفَّة مسقوفة مفتحة الجوانب . وقد كانت هذه الأماكن على حقارتها ، لا تجهز بشىء له قيمة من الأثاث ، ولا تُعَدُّ بما يجب أن تعد به من الأدوات الدراسية . وقد كان التلاميذ فيها يجلسون على الأرض وفى يد كل منهم لوح مسند إلى ركبته .

كان اليوم المدرسى فى هذه المدارس طويلاً يمتد من شروق الشمس إلى غروبها ، من غير أن تتخلله فترات للراحة يَسْتَجِمُّ فيها الذهن المكدود ، أو يستعاد فيها النشاط المفقود ، اللهم الا فترة قصيرة يقضيها التلاميذ فى الغَداء . ومن حسن الحظ أن المعلمين لم يكونوا ليكلفوا الأطفال استذكار شىء من الدروس فى منازلهم ، وأن أيام العطلة كانت كثيرة ، فقد كانوا يشتغلون ثمانية أيام ويستريحون اليوم التاسع . وكانوا ينقطعون عن العمل فى الأعياد والمواسم ، وفى اليوم الذى تقام فيه سوق المدينة . وفوق ذلك كانوا ينقطعون مدداً طويلة فى فصل الصيف ، وفى القطاف وأوقات الحصاد .

(٢) المدارس الثانوية

لا جدال فى أن هذه المدارس إغريقية الأصل ، أنشأها الإغريق فى البلاد الرومية لنشر اللغة والآداب والمقاصد الإغريقية ، وقد كان القائمون بالتعليم فيها طائفة من النحاة المتأدبين الذين لهم قدم راسخة فى العلم ، واطلاع واسع فى الآداب ، ولا ريب فى أنهم كانوا يَفْضُلون رجالَ التعليم فى المدارس الابتدائية ، ويفوقونهم فى العلم والفضل والمنزلة بين الناس .

وغنى عن البيان أن تعليم الآداب فى هذه المدارس كان أرقى وأعلى منه فى المدارس الابتدائية ، غير أنه ليس من السهل أن نُعَيِّن الغاية التى كانت تنتهى إليها دراسة الآداب فى المدارس الابتدائية ، أو المبدأ الذى كانت تبتدئ عنده هذه الدراسة

فى المدارس الثانوية . يدل على ذلك أن المدرسة التى أنشأها « اسْبُورْيوس كَارْفُلْيُوس » سنة ٢٣٠ ق . م لم تكن فيما يغلب على الظن مدرسة ثانوية ، ولكنها مع ذلك ذهبت فى دراسة الاداب إلى مدى أبعد مما كان مألوفًا فى المدارس الابتدائية .

وقد كانت هذه المدارس على نوعين ، مدارس إغريقيـة تعلم اللغة والآداب الإغريقية ، ومدارس لاتينية تعلم اللغة والآداب اللاتينية . وقد كان الغلمان يذهبون إلى هذه وتلك ، ويتعلمون اللغتين ، غير أن منهم من كان يبتدى باللغة الإغريقية ، ومنهم من كان يبتدئ باللاتينية . ويُفَضِّل كونتليان البداءةَ بالأولى ، وقد ذكر لذلك أسبابًا سيأتى بيانها فى ترجمة حياته

موادها الدراسية وكفاية المعلمين فيها

كان رئيس كل مدرسة يضع منهاج الدراسة فى مدرسته بنفسه ، من غير أن تتدخل الحكومة فى عمله ، أو تعترض عليه فى شىء ، وعلى الرغم من ذلك فإن مناهج هذه المدارس كادت تكون متماثلة ، وذلك لأن معلميها لم يخل أمرهم من أن يكونوا إغريقًا أو تلاميذ إغريق ، أو ممن درسوا مناهج أقرها الإغريق ورضُوا عنها .

ولما كانت هذه المدارس ترمي إلى تذليل اللغة و إقدار التلاميذ على التعبير الصحيح شفويًّا وتحريريًّا ، لم تخرج مناهجها عن دراسة قواعد اللغة وحذق الآداب الإغريقية واللاتينية ؛ وقد كانت دراسة قواعد اللغة أشمل وأعم مما نعهده الآن فى مدارسنا ؛ كانت تشمل دراسة النحو والصرف والعروض وعلم الاشتقاق ومخارج الحروف ، كما كانت تشمل تمرين التلاميذ فى الإنشاء وشرح الجمل والتراكيب . وقد كانت الطريقة المسلوكة فى أخذ الغلمان بالآداب أن يقرأ معهم المعلم مختارات واسعة من الشعر والنثر مع الحرص على فهم المعانى والعناية بحسن الأداء ، وأن يُتْبع ذلك بتمرينات تحريرية مختلفة ، فيطلب إليهم مرة أن يشرحوا بعض فقرات قرءوها بعبارات من عند أنفسهم ، موجزين فى بعض المواطن ومُطْنِبين فى بعض . وتارة يدفع إليهم نَبْذًا من كتاب ويكلفهم نقده من الوجهتين اللفظية والمعنوية معًا . وتارة يختار لهم قطعة شعرية

أو نثرية ، ويرغب إليهم فى التعليق عليها ، بحيث يشمل تعليقهم شرحَ المفردات والتراكيب ، وشرحَ ما احتوت عليه القطعة من الكنايات والإشارات إلى الخرافات الوثنية ، والمعتقدات الدينية ، والحوادث التاريخية . وقد كان المعلم فوق ذلك يعنى كل العناية بتمرين تلاميذه على التعبير الصحيح ، والنطق الفصيح ، وقرض الشعر .

ومن هنا يظهر أن المعلم فى المدارس الثانوية لا بد أن يكون كثير المعارف واسع الاطلاع ، حتى يستطيع أخذ تلاميذه بهذه التمرينات العالية . وفى هذا يقول كُوِنْتِليان ما معناه « لا يكفى فى تدريس الآداب بهذه المدارس أن يقتصر المعلم على دراسة الشعراء ، وانما عليه أن يتناول كل صنوف الكُتَّاب ؛ ولا يكفى أن يدرس المعلم كتابًا أدبيًا من أجل مادته العلمية أو التاريخية فحسب ، وانما عليه أن يدرسه أيضًا من الوجهة اللغوية . ولن تكون دراسة قواعد اللغة تامة حتى تكون للمعلم دراية واسعة بالموسيقى ، فان لدراسة القواعد صلة متينة بالأوزان الشعرية ، وصلة الأوزان الشعرية بالموسيقى معروفة معهودة . كذلك لا غنى للمعلم هنا عن علم الفلك ، فان الرجل الجاهل بالنجوم لا يستطيع أن يفهم الشعر ، وذلك لأن الشعراء كثيراً ما يستعملون بزوغ الكواكب وأفولها عند إرادة التوقيت . ولا يسوغ أن يكون مدرس الآداب جاهلاً بالفلسفة ، فانك لا تكاد تجد كتابًا فى الشعر إلا وهو مفعم بأفكار وآراء لها اتصال متين بمسائل الطبيعة ومباحث الكون . ومن جهة أخرى فان « إمپيدُوكليس » فى الاغريقية ، و« ڤارو » و« لُوكْرِتيُوسْ » فى اللغة اللاتينية ، قد علموا الناس الفلسفة من طريق الشعر »

الكتب المدرسية

كان أكثر الكتب التى تختار للمطالعة ودراسة الآداب شعرية ، وكانت مؤلفات هوميروس اكثرها شيوعًا وأعمها استعمالاً ، لما اتفق لها من جمال المعانى وارتقاء الأساليب . ويلى هذه مؤلفات « هسْيود » فانها لنزعاتها العملية ومباحثها الخلقية ، قد استهوت نفوس الروم وحلت من قلوبهم فى مكان رفيع . وهناك فوق ذلك مؤلفات أخرى

كثيرة فى الأقاصيص وسير الأبطال وفى الأناشيد والأغانى أطراها كونتليان ، ونصح بقراءتها ، وأدخلها فى مناهج الدراسة .

أما الشعراء اللاتينيون فأولهم « فرجيل » . وقد كسبت مؤلفاته شهرة فائقة ودخلت فى مناهج الدراسة بعد وفاته بقليل ، وسرعان ما نافست شعر هوميروس وغلبته على مكانته فى هذه المدارس . ولما جاء عهد الامبراطورية رغب الناس عن الشعر القديم وانصرفت نفوسهم عنه ، وأخذ الشعر الحديث ولا سيما شعر هُوراس . ولوُكان . واسْتَاتْيُوس يشغل مكاناً ذا بال فى مناهج الدراسة الثانوية .

ولقد ظهر فى اللغة اللاتينية منذ أزمان قديمة رسائل ومصنفات كثيرة فى قواعد اللغة . وعلى الرغم من ذلك فقد مضت أزمان الجمهورية كلها ولم يظهر فيها كتاب فى هذا الفن يصلح لاستعمال التلاميذ ، ولذلك أخذ معلمو هذه المدارس يستعملون المصنفات الإغريقية الموضوعة فى هذا الفن . وأول كتاب لاتينى صنف لتلاميذ المدارس فى قواعد اللغة هو كتاب «بَلامُون» استاذ كُونْتِلْيَان ، ألفه فى أوائل القرن الأول من العصر المسيحى . ثم أُلِّفت بعد ذلك كتب أخرى كثيرة من نوعه

توسيع مناهجها الدراسية

فى أواخر أزمان الجمهورية مال الناس إلى إطالة زمن الدراسة فى المدارس الثانوية وتوسيع مناهجها بإضافة شىء كثير من مناهج المدارس العالية إليها . ومن أكبر مظاهر هذا التوسيع أن أخذ معلمو المدارس الثانوية يمرنون تلاميذهم على إعداد المقالات والخطب الوصفية والخلقية وإلقائها فى المحافل والمجامع ، وذلك بأن يختار المعلم من مأثور الشعراء أو الكتاب المشهورين حكمة أو جملة تَصْلُح أن تكون عنوان موضوع إنشائى ، ثم يكلف التلاميذ أن يكتبوا فى معناها مقالاً مسهباً ، فاذا كتبوه كلفهم حفظه وإلقاءه على صورة خطابية . وقد عاب كُونْتِلْيَان هذا النظام بأنه شغل التلاميذ بالخطابة قبل أن يظهر فيهم الاستعداد الكافى لها ، وأنه جعلهم فوق ذلك يُغْفلون تمرين أنفسهم فى اللغة والآداب ، حباً فى التظاهر بمظاهر مُبْتَسِرَة لم يحن الوقت لها بعد .

ولكن على الرغم من ذلك كانت مقالات التلاميذ وخطبهم مكللة بشيء من النجاح. وقد كان السر فى هذا النجاح أن التلاميـذ ساروا فى إعداد خطبهم ومقالاتهم على طريقة مرسومة ذات مراتب ست ، نذكرها لك مفصلة فيما يأتى ، -

(١) إطراء الشاعر أو الكاتب الذى اقْتُبِس عنوان الموضوع من كلامه .

(٢) التوسع فى الفكرة التى يتضمنها الموضوع .

(٣) شرح الأصول العامة التى تستند إليها الفكرة ، وتأييد هذه الأصول بالبراهين .

(٤) الموازنة بين الفكرة وما يماثلها أو يناقضها من أفكار الشعراء والكتاب الآخرين .

(٥) الاستشهاد بالحوادث التاريخية والمأثور من النظم والنثر .

(٦) الاختتام بنصيحة عملية نافعة فى الموضوع .

علوم وفنون أخرى فى المدارس الثانوية

تَضَمَّنَت مناهج الدراسة الثانوية علومًا وفنونًا أخرى أخذها الروم عن الإغريق وأكسبوها صبغة عملية ، فدرسوا الحساب للانتفاع به فى متاجرهم ومزارعهم وأعمالهم الدنيوية ، والهندسةَ لاستخدامها فى أعمال المساحة وزرع الأرض ، والفلكَ ليستطيعوا به توقيت الحوادث وحساب السنين والأيام ، ومبادىء وصف الأرض لأغراض عملية أيضًا . كذلك درسوا الموسيقى لتعويد آذانهم الأوزان الشعرية ، والاستعانة بذلك على حسن الايقاع وجودة الإلقاء فى الخطابة ، وللانتفاع بها فى ترتيل الأناشيد والاغانى الدينية ، ولم تكن لتُدْرَسَ على أن تكون صناعة ، أو وسيله للنبوغ فى استعمال المعازف والمزاهر .

وقد استمر الروم زمنًا طويلاً وهم لا يُعْنَوْن بالألعاب والتمرينات الرياضية ، لأنهم كانوا يزعمون أنها مدعاة إلى البطالة ومدرجة إلى فساد الأخلاق ، وأن فيها إسرافًا فى وقت الانسان وإنها كاً لقوته . وبقى حالهم كذلك حتى إلى أزمان « نيرون » ، ولكنهم فيما بعد أدخلوا فى مناهج الدراسة بعض تمرينات بدنية كان الغرض منها حفظ

الصحة وتقوية الأبدان ، وقد اختاروا هـذه التمرينات بحيث تفيد فى إعداد الشبان لأعمال القتال ،

وكان الروم يأنفون من الرقص ويَعُدُّونه من الأعمال التى لا تليق بشرف الانسان ، حتى لقد قال شِيشِيرون « لا يُقْبِل على الرقص إلاَّ السكارى والمعتوهون » . وعلى الرغم من ذلك فقد تعلق به بعض الشبان ، ورأوا فيه نوعا من أنواع التمرينات البدنية النافعة فى تحسين خَلْق الانسان وتعديل قامته .

ومما تقدم نرى أن جميع العلوم والفنون التى كانت تدرس بالمدارس الثانوية ما عدا الآداب والقواعد ، كانت تدرس دراسة سطحية ولأغراض عملية محضة .

طرقها فى التعليم والنظام

كان واجب التلميذ ينحصر فى الاستماع والاصغاء إلى المعلم ، من غير أن يكلَّفَ إعمال فكره فى استنباط المعانى واستخراج القواعد ، ومن غير أن يحرك عقله فى كشف أسرار الدرس بنفسه . وكان مجمل هذه الطريقة أن يقرأ المعلم بعض فقرات من الكتاب ، ثم يقرؤها التلميذ من بعده ، حتى إذا انتهيا من القراءة ، أخذ المعلم يشرح المعانى ، وأخذ التلميذ يقيد فى دفتره معنى كل كلمة على حسب ما يسمع من معلمه من غير تبديل أو تغيير . وكان المعلم يشرح جميع الحوادث والكنايات التى تعرض فى الكتاب ، ويُتْبِع ذلك بنقد مادة الكتاب واسلوبه ، غير أن الشرح والنقد كانا تافهين قليلى القيمة .

ولما كان الحفظ عماد هذه الطريقة وقِوَامَها ، لم تكن لتشوق المتعلمين أو ترغبهم فى الإقبال على الدرس ، فلا غرابة إذاً أن لجأ المعلمون هنا إلى ما لجأ اليه معلمو المدارس الابتدائية ، من قسوة النظام وحمل التلاميذ على التعليم بالشدة والعنف

أبنيتها وأجهزتها

كانت المدارس الثانوية فى مبانيها وأجهزتها تفوق المدارس الابتدائية وتفضلها كثيراً . وقد كانت العادة أن تتخذ هذه المدارس فى صُفَف فسيحة ملحقة بالابنية

الكبيرة ، بحيث يكون لها أبواب تفتح فى شوارع المدينة . وكان للتلاميذ فى كل مدرسة مقاعد مستطيلة يجلسون عليها ، وللمعلم منصة عالية ممتازة يجلس فوقها . وقد كانت جدران هذه المدارس تزدان بأنواع الصور والنقوش ، ولا سيما صور الشعراء والكتاب ، وصور الحوادث التاريخية ، والخرافات الوثنية .

(٣) مدارس البيان

فى الوقت الذى غزا فيه الروم بلاد الإغريق ، ظهر نوع من أنواع التعليم فى البلاد الرومية ، وأخذ يفشو فى أنحائها تدريجًا ؛ ذلك هو التعليم الذى جاءت به مدارس البلاغة والبيان ، وكان خاتمة الأعمال التى تمت لصبغ التربية الرومية بالصبغة الإغريقية .

لاقى هذا التعليم فى بدء أمره من الصعاب والعقبات ما حال دون سرعة نموه وانتشاره ؛ قال سُوتُونيُوس « إن فن البلاغة لم ينتشر بين الناس فى رومة إلا فى عصر متأخر جدًّا ، وقد لاقى فى أول أمره معارضة قوية شديدة كادت تقضى عليه ، ولكيلا أترك فى نفسك شكًّا من هذا أسوق إليك حُكْمَ مجلس الشيوخ وقضاءهم فيه ، وكذلك قرار المفتشين فى شأنه » . ثم ساق ذلك القضاء الذى أصدره مجلس الشيوخ سنة ١٦١ ق . م ، وأقصوا به جميع الفلاسفة ورجال البيان الإغريقيين . وساق أيضًا ذلك القرار الذى أعلنه المفتشون سنة ٩٢ ق . م ، وأظهروا فيه سخطهم على مدارس البيان اللاتينية وعدم رضاهم عن أعمالها

جاء فن البلاغة إلى رومة على ما يظهر فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم ظهر للناس تدريجًا أنه فن نافع يليقُ بالشرفاء والسراة أن يتعلموه ، فأقبل عليه كثير من الشبان معتقدين أنه سبيل القدرة على الدفاع ، وطريق الوصول إلى الشهرة والصيت البعيد . وقد كانت جميع مدارسه فى أول نشأته بهذه البلاد إغريقية محضة . وفى غضون القرن الأول قبل الميلاد ، ظهرت له مدارس لاتينية كثيرة ، غير أن هذه كانت أقل من الأولى فى جودة التمرين وحسن التعليم . وقد بقيت هذه المدارس بنوعيها سائرة فى طريق التقدم على الرغم من المعارضة الشديدة والصعاب التى أقيمت فى طريقها .

على أنها لم تنتشر بين الناس انتشاراً واسعاً إلا فى أزمان الإمبراطورية . أما قبل ذلك فلم ينتفع بها إلا أفراد الأُسر العريقة فى المجد ، ولم يَشْدُدْ أزرها فى الغالب إلا الذين كانوا يبغون ظهوراً فى ميادين الخطابة والسياسة .

موادها وأساليبها المدرسية

كانت هذه المدارس تُعِدُّ طلابها ليكونوا خطباء مفَوَّهين ، ومَدَارِه قادرين ، وكان روح الحرفة أظهر فى أغراضها منه فى أغراض المدارس الثانوية . وإذا تدبرنا ماذكره شِيشِيرون وكُوِنْتِلْيَان فى أوصاف الخطيب وتفصيل أعماله ، حكمنا على الفور بأن مناهج هذه المدارس لم تكن بحال من الأحوال قاصرة أو ناقصة ، فقد ذهب كلاهما إلى أن الخطيب لا يليق به أن يقصر نفسه على الدفاع فى المحاكم عند الخصومات ، وانما يجب عليه أن يشترك فى جميع مظاهر الحياة وأعمالها العامة ، وذهبا فوق ذلك إلى أن الرجل لا يكون خطيباً حتى يكون طلق اللسان ، حسَن البيان ، جم المعارف ، ملمًّا بالشرائع وحوادث التاريخ ، خبيراً بالمشاعر والعواطف الانسانية ، قادراً على إثارتها أو كَسْر حدتها على حسب ما يشتهى ويريد . كذلك يجب أن يكون الخطيب صادق الحكم ، سريع الحفظ والذكر ، قويم الخُلُق ، حازمًا فيلسوفًا .

إذا كانت هذه هى صفات الخطيب عند الروم ، فلا غرو أن كانت مدارسُهم الخاصة بتخريج الخطباء واسعة المناهج راقية التعليم . كانت هذه المدارس فوق ما تُزَوِّد به طلابها من المعارف الخاصة بأساليب الخطابة وطرق إلقائهـا ، تفيدهم معارف أخرى واسعة فى اللغة والآداب والعلوم ، وتثقف عقولهم بأصول الحكمة ومبادئ الفلسفة ولاسيما الفلسفة الرّواقية السامية . وعلى الإجمال كان طلاب هذه المدارس يدرسون جميع ما كان معروفًا فى ذلك الوقت باسم العلوم العقلية السبعة ، وهى قواعد اللغة والبيان والمنطق والموسيقى والحساب والهندسة والفلك ، ولكنهم كانوا يدرسونها من وجهة عملية محضة كما هو المنتظر فى هذه البلاد .

أما الأساليب والطرق التى كانت متبعة فى تعليم الخطابة فى هـذه المدارس ، فمن

السهل على الانسان أن يستنبطها مما كتبه شيشيرون فى رسائله ومؤلفاته ، و يظهر مما ذكره هناك أن الطلبة كانوا يمرنون فى المبدأ على إلقاء مقالات قصيرة فى موضوعات خلقية أو سياسية ، وانهم فى كثير من الأحيان كانوا يُراضون على الخطابات الجدلية التى يتجاذب موضوع الخطابة فيها خطيبان ، كل منهما يتخذ لنفسه وجهة مناقضة لوجهة صاحبه ، فإذا كان الموضوع نقد سياسة معينة مثلاً ، أقام أحدهما البراهين والأدلة على سلامتها من النقص ونفعها للبلاد ، وأبرَهَ الآخر على فسادها وقصورها وضررها الذى يلحق الأفراد والجماعات . فإذا ساروا فى هذه التمرينات شوطاً ، و بلغوا فيها غاية ، انتقلوا إلى تمرينات خطابية أخرى أرقى وأصعب ، وهنا يتناولون ثلاثة أنواع راقية من الخطابة .

أولها الخطابة التأملية ، وهى التى يطلب فيها من الخطيب أن يشرح الخطة الحازمة التى يجب اتباعها فى ظروف وأحوال معينة تذكر له .

وثانيها الخطابة القضائية ، وهى التى يمثل فيها الخطيب دور المدره حين يدفع عن موكله أمام القضاء ، سواء أ كان الموكل جانياً أم مجنياً عليه .

وثالثها خطابات المدح والقدح ، وهى التى ينبرى فيها الخطيب لمدح شخص معين أو ذمه.

وكان الطالب فى هذه المدارس يكلف إعداد خطبته قبل إلقائها ، و يطلب إليه أن يعنى كل العناية بجميع العوامل التى تهيئ له النجاح فيها . ومن هذه العوامل ما يأتى :

(١) مادة الخطابة

(٢) ترتيب الخطابة وتقسيمها إلى المراتب الآتية : —

ا — المقدمة التى يسوقها لتنبيه أفكار السامعين وتشويقهم إلى موضوع الخطابة

ب — تقرير القضية التى هى موضوع الخطابة

حـ — إقامة الأدلة والبراهين الكافية على صحة ما يقرره و يدعيه .

د — بسط الموضوع وحلُّه و بيان شُعَبِه .

هـ — دفع الآراء المخالفة بالحجة والبرهان .

(٣) إلقاء الخطابة بالوقار المشوب بالدعة واللطف .

هذا وقد كان الغلمان يذهبون إلى هذه المدارس فى نحو السادسة عشرة من أعمارهم حين يخلعون أردية الطفولة و يستبدلون بها أردية الرجولة . أما مدة الدراسة فيها فقد كانت تختلف باختلاف كفايات الطلاب واختلاف المدارس ذواتها . على أنها كانت فى العادة لا تزيد على سنتين أو ثلاث .

(٤) الجامعات

إذا أتم الغلام الرومى دراسته فى مدارس البيان السالفة الذكر ، وكان طموحاً لا يقنع بهذه الغاية ، رحل إلى جامعة أثينا ، أو الاسكندرية ، أو رُودِس ، أو غيرها من الجامعات الإغريقية ، لاستكمال ما تنزع إليه نفسه من أنواع التهذيب .

كانت الجامعات كلها فى مبدأ الأمر فى البلاد الإغريقية . ولما كثرت رحلة الشبان إليها ، أسس الروم جامعة عظيمة فى رومة . و بعد ذلك بقليل انتشرت الجامعات فى جميع أرجاء المملكة الرومية شرقاً وغرباً ، غير أن الشرق بفضل نفوذ الإغريق كان حظه من هذه الجامعات أوفى وأتم . ومن الجامعات التى اشتهرت فى الممتلكات الغربية ، جامعة مرسليا ذات الشأن العظيم والذكر البعيد .

هدريان

ويرجع أصل كثير من هذه الجامعات إلى دور الكتب التى قامت فى مبدأ الأمر على المؤلفات القيمة التى حملها الروم معهم من بلاد الإغريق وآسيا الصغرى بين غنائمهم الحربية والتى نمت بعد ذلك بما أضيف اليها من الكتب ، حين زهت الآداب اللاتينية ، ووصلت الحضارة الرومية إلى أقصى غاياتها . واليك مثلاً جامعة رومة ، فان أصلها دار الكتب التى أسسها الإمبراطور فِسْپازْيان فى معبد السلم حوالى سنة ٧٥ بعد الميلاد ، وقد تعهدها بعد ذلك بنصف قرن الإمبراطور هَدْرِيان ، فبنى لها بناء فخماً ، وأضاف إلى معلميها عدداً كبيراً وأسماها الأثنيوم

كانت الدراسة فى هذه الجامعات مقصورة فى أول الأمر على العلوم العقلية السبعة، ولا سيما قواعد اللغة وفن البيان ، ولم يمض على ذلك غير قليل حتى أضيف إلى مناهجها القانون والطب وفن البناء وعلم الآلات . أما الفلسفة النظرية والبحوث العلمية ، فلم يكن لها شيء من الحظ فى هذه المعاهد .

تربية البنات

بعد انقضاء العصر الأول من عصور الدولة الرومية ، تمتع النساء بقسط وافر من الحرية ، ونصيب عظيم من التثقيف والتهذيب . فقد كان الروم يساوون بين المرء وزوجه ، ويَدْعُون الزوجَ أمَّ الأسرة ، كما كانوا يدعون الرجل أبا الأسرة ، وكانت المرأة عندهم سيدة فى دارها ، تسيطر على الإماء ، وتوزع بينهن الأعمال المنزلية الشاقة من طحن وعجن وخبز ، وتشتغل هى بالنِّساجة والحياكة وتدبير شئون البيت . ولم تكن كالمرأة اليونانيـــة تعيش فى معزل عن الرجال ، وإنما كانت تختلط بهم ، فتأكل مع زوجها على مائدة واحدة ، وتستقبل زائريها ، وتغدو إلى أسواق المدينة ، وتغشى المسارح والمحافل ودور القضاء .

كذلك كانت تربية المرأة فى رومة أرقى وأتم منها فى أثينا ، فهناك من الدلائل ما لا يدع محلاً للشك فى أن البنات كن يذهبن إلى المدارس الابتدائية التى يذهب اليها الصبيان ، ولكن النساء لم يكن لهن أن يختلطن بالرجال فى دور العلم ومعاهد التعليم . ومن أرادت منهن أن تستكمل معارفها بعد الانتهاء من المدارس الابتدائية ، ابتغت ذلك عند معلمين خاصين يعلمونها فى المنزل ، أو انتظرت إلى ما بعد الزواج فأخذت عن بعلها ما تبغيه من علم وأدب .

ومن أكبر الدعاة إلى تهذيب المرأة الرومية ، « مُوسُونيُوس » الفيلسوف الذائع الصيت ، فقد كتب جملة رسائل فى التربية ، دعا فيها إلى العناية بتثقيف المرأة ، وأوجب مساواتها بالرجل فى التربية والتعليم ، مستنداً فى ذلك إلى أن الفضائل التى يجب أن

يتحلى بها الرجل ، هى بعينها تلك الفضائل التى يجب أن تتحلى بها المرأة . ولما كانت الوسيلة الفذة فى اكتساب هذه الفضائل هى التربية ، لم يكن هناك بد من أن تكون هذه التربية متماثلة فى الرجال والنساء على حد سواء . ولقد كان موسونيوس حريصاً على أخذ النساء بالفلسفة . ومما يؤثر عنه فى ذلك قوله « إذا سألنى سائل أى العلوم له اسمى المنازل فى تربية المرأة وتهذيبها ؟ قلت له فى الجواب ، إذا كان الرجل لا تكمل تربيته بغير دراسة الفلسفة فكذلك المرأة » .

تنظيم التربية وتشجيع الحكومة إياها

انتشرت المدارس على اختلاف أنواعها انتشاراً واسعاً فى أيام الإمبراطورية ، حتى لم تبق مدينة من غير أن تكون لها مدرسة ثانوية خاصة بها . وعلى الرغم من ذلك لم يكن للروم ما يصح أن يسمى نظاماً مدرسياً عاماً ، إذ لم يكن هناك إشراف للحكومة على شىء من شئون التربية ، ولم يكن تأسيس المدارس بأى حال من الأحوال إلزاماً ، كما هو المألوف فى كل الممالك التى لها نُظُم عامة فى التربية ؛ ولكننا إذا نظرنا من جهة أخرى إلى أن الحكومة الرومية فى طور الإمبراطورية أخذت تدريجاً تشجع التعليم ، وتُغْدِق الأموال على رجاله ، وتطلب التدخل فى بعض شئونه ، أمكننا أن نقول إن نظام التربية فى بلاد الروم قد تكوَّن بعض التكوُّن فى ذلك الحين .

أما الطرق التى اتبعت فى هذا التشجيع فقد كانت تختلف اختلافاً واسعاً باختلاف الإمبراطورين الذين تولوا حكم البلاد . فمنهم من عنى بتأسيس المدارس و إقامة أبنيتها ومنهم من وهب الأموال لصيانتها وحفظها . ومنهم من ساعد بدفع أجور طائفة من المعلمين . ومنهم من اختص بعض الأساتذة بأنواع من الرخص ومتَّعهم بكثير من الحقوق والمتَع . ومنهم من أجرى الرواتب على النابغين من التلاميذ . وهذا يوليوس قيصر ، ذلك الذى غزا البلاد وأخضع العباد وأراد إنشاء إمبراطورية عالَمية ، فإنهُ خول جميع المعلمين الغرباء حقَّ انتخاب النواب ، وسوى فى ذلك بين من كان منهم

فى البلاد الرومية فعلاً و بين من يحضرها منهم فيما بعد . وهذا أوغسطس فإنه حين نفى جميع الغرباء من رومة ، استثنى من بينهم المعلمين . وقد كان الإمبراطور ڤسپازيان (٧٠ — ٧٩ م) أول من شجع التربية وأعانها بالمال إعانة حقيقية ، فقد أجرى على أستاذى البلاغة فى رومة رواتب من الخزانة العامة ، ولم يفرق فى ذلك بين أستاذى الروم وأستاذى الإغريق . ولعل كُوِنْتِلْيان كان أول من انتفع بهذه المِنَح .

بقى تشجيع التربية والتعليم قوياً فى رومة فى جميع أزمان القرن الثانى بعد الميلاد ، فسار فيه « هَدْرِيَان » (١١٧ — ١٣٨م) بقدم ثابتة ، واتبع فيه سنة أسلافه . ولما جاء « أنطونينُوس بِيُوس » (١٣٨-١٦١م) أفسح فى دائرته وخطا فيه خطوات واسعة ، فلم يجعله مقصوراً على مدارس رومة فحسب ، بل عم به مدارس الأقاليم أيضاً ، وشمل ببره رجال التعليم هنا وهناك ، فمنحهم رواتب معينة ، واختص فوق ذلك فئة من النحاة والفلاسفة ومعلمى البلاغة فى كل حاضرة وكل مدينة بأنواع من المتَع والحقوق المختلفة ، فأعفاها من الضرائب المحلية والضرائب العامة معاً ، وأقالها من الخدمة العسكرية والاشتراك فى إطعام الجنود ، وقد كانت هذه الفئة تختلف قلة وكثرة ، باختلاف اتساع الحاضرة أو المدينة التى تسكنها وتشتغل بالتعليم فيها .

امتدت معاضدة التربية أيضاً إلى زمن متأخر جداً ، فقد عنى به كثير من الإمبراطورين حتى فى أواخر أزمان الإمبراطورية . ففى عهد الإمبراطور « الكْسَنْدر سِيڤِيروس » (٢٢٢ — ٢٣٥ م) أنشئ عدد كبير من المدارس ، وأجريت رواتب كثيرة على طائفة عظيمة من التلاميذ . وقد أصدر « قُنْسْطَنْطِين » (٣٠٦ - ٣٣٧ م) أحكاماً ثلاثة زاد بها حقوق المعلمين ، ووسع فيها ما لهم من انواع المتَع والحقوق . وذهب « جْرَاتْيَان » فى تشجيع التربية وشد أزرها الى أبعد من ذلك ، فانه أمر أن يُعطَى جميعُ معلمى القواعد والبلاغة فى القصبات السبع عشرة الغالية رواتب من الخزانة العامة تماثل رواتبهم التى كانوا يقتضونها من الحكومات المحلية . ثم جاء من بعده « تِيُودُوسْيوس » ، فنهض بصناعة التعليم ، وأعلى مكانتها بين الصناعات ، ووصل بالخطباء والمعلمين إلى أسمى ما يتوقون إليه من مراتب المجد ومظاهر الشرف ، فمنح النابهين والنابغين منهم رتبة الكُونْت .

هكذا وصل تشجيع إمبراطورى الروم للتربية الى أبعد الغايات ، ولكنه جرَّ معه كثيراً من المثالب والمعايب ، فقد استمال كثيراً من المعلمين وأغراهم بإنشاء المدارس وإقامة المعاهد ، حبا فى توفيرالمال وكسب الحقوق ، لارغبة فى إنهاض التربية وترقية التعليم . ولما كان من المصلحة العامة أن تحارَبَ هذه النزعة السيئة ، قضى الإمبراطور تيُودُوسيُوس سنة ٤٢٥ بعد الميلاد أن حق تأسيس المدارس وَقْفٌ على الإمبراطور وحده ، لا يشاركه فيه مشارك ، وأن كل من تعدى على حقه فى ذلك ، واجترأ على بناء مدرسة أيا كان نوعها ، نال نصيبه من العقاب موفوراً . وبهذه الوسائل خضعت إدارة المدارس لسيطرة الحكومة خضوعًا تامًا ، وبهذا أيضًا تم وضع الأساس الأول فى نظام التربية العام لأول مرة فى التاريخ .

انحطاط التربية

من قبل أن تسيطر الحكومة على شئون التربية ، أو تتدخل فى إدارة المدارس وأعمالها ، كانت علة الهَرَم ، قد أخذت تظهر فى الدولة ، وبدأ الفساد يسرى فى جميع أحوالها وشئونها ، فاضطرب حبل السياسة ، واستبد الإمبراطورون ، وثقلت كواهل الأهلين بالضرائب والمكوس الفادحة ، وانتشرت الرّشوة والمحاباة فى أعمال الحكومة ، وانغمس الناس فى الملاذ والشهوات ، وفسدت الأخلاق والآداب . وقد اختلت تبعًا لذلك شئون التربية وساءت أحوالها ، فأخذت فى التدهور والانحطاط ، وسرت إليها عوامل الضعف والفساد ، فبعد أن كانت التربية عامة شائعة يَنْهَلُ ويَعَلُّ منها الغنى والفقير ، والشريف والوضيع على حد سواء ، أصبحت الآن خاصة بالأشراف والأغنياء ، لا تعدوهم إلى الفقراء وأوساط الناس . وذلك لأن الناس كانوا يطلبون العلم ويقبلون على التربية لأحد أمرين : إما للانتظام فى سلك مجلس الشيوخ ، وإما لالتماس الشهرة والمناصب العالية من طريق النبوغ فى الخطابة التى كانت تعلم فى مدارس البيان . أما الأول فلم يَعُدْ للفقراء وأوساط الناس حظ فيه ، لأن المجلس أصبح وقفًا

على خاصَّة الإمبراطور والمقربين إليه ، أو على الأغنياء أصحاب الثروة ورءوس الأموال ، وأما الثانى فقد مضت أزمانه وانسدت مسالكه ، حين سيطر الإمبراطور على جميع أعمال الحكومة ، وأدار بنفسه جميع شئون القضاء .

ومن وجوه الانحطاط الذى حدث فى التربية أيضاً مانال مواد الدراسة ومناهجها من النقص والضعف . فقد ذهبتْ الفلسفة والشريعة جملة من مناهج الدراسة ، وقلت العناية بدراسة الآداب وقواعد اللغة ، وهما الفنَّان اللذان أعلى من شأنهما كِونْتِلْيان ، ودعا إلى دراستهما دراسة وافية متقنة ، وقد أصبحت مؤلفات فِرْجيل وحدها هى كل ما يدرسه الطلاب فى الآداب . على أن دراسة هذه المؤلفات ما كانت لتعدو شرح العبارات وحَلّ الجمل وإعرابها الى شىء من العناية بتقدير ما حوته من جمال الأساليب وقوة التراكيب .

أضف إلى ذلك أن التعليم أصبح صُوريا قليل النفع والقيمة . واليك فن البيان ، فإنه لم يبق لتعليمه أغراض عملية ، ولم يعد له ارتباط بشئون الحياة وأحوالها الخارجية ، وقد أصبح الطلاب لا يبغون من وراء تعلمه سوى التظاهر والتباهى بما يعرضونه فوق المسارح العامة ، وفى المحافل الخاصة من طلاقة اللسان ، وبلاغة المنطق ، والعلم الواسع بمفردات اللغة .

وعلى الرغم من أن النحاة ورجالَ البيان لم يفقدوا إلى الآن شيئًا مما كان لهم من سمو المكانة وعلو المنزلة بين الناس ، فقد أصبحوا يقنعون بالمظاهر الكاذبة ، ويكتفون بعرض معارفهم وإظهار بلاغتهم عند الفرص السانحة . وقد أخذ جماعة من هؤلاء يطوفون فى البلاد ، وينتقلون من مكان إلى مكان ، يخطبون ويحاضرون ، ولكنهم كانوا يقصدون بذلك اللهو والتسلية ، أكثر مما كانوا يقصدون إلى التعليم . وكان الناس يهرعون إليهم من كل مكان ليستمعوا إلى خطبهم وأقوالهم ، كما يهرع الناس فى هذه الآونة للاستماع الى المغنين ، أو الوعاظ والخطباء المشهورين .

كان معلمو البيان فى إبان نهضة التربية فى البلاد الرومية يُعْنَوْن كل العناية بالتعليم

الحقيقى ، ومباحثة الشبان فى الموضوعات العلمية والأدبية والسياسية ، أما الآن فقد أصبح همهم مقصوراً على أغراض لغوية تافهة لا تتعدى تمييق العبارات ، وتزويق الجمل ، واختيار اللفظ الرائع ، والكلام البليغ ، وما إلى ذلك من المظاهر والسخافات اللفظية التى لا تفيد فى حياة ولا معاد

هكذا تدهورت التربية الرومية ، ودب الفساد فيها من جميع جهاتها ومناحيها ، ولم يمض عليها بعد ذلك غير قليل حتى أصبحت أثراً بعد عين . ذلك أن التربية المسيحية أخذت تمتزج بها ، وتغالبها شيئًا فشيئًا حتى تم لها الغلبة والسلطان ، ففى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد سادت التربية الكَنَسِيَّة بانتشار مدارس الرهبان والمدارس الأسْقُفِيَّة ، ولم يكد القرن السادس ينتصف ، حتى كان للأديار السلطان المطلق ، والنفوذ الشامل على جميع أعمال التربية فى البلاد . وبذلك ظهر العهد المعروف بعهد العصور المتوسطة فى أكمل مظاهره وأتم حالاته .

تأثير التربية والحضارة الروميتين
فى أحوال العالم

كان للتربية والحضارة الروميتين أثر خالد فى تاريخ العالم وتقديم حضارته . ويرجع السر فى ذلك إلى أن الروم كانوا بفطرتهم عمليين نفخوا روحهم العملية فى الأخيلة البديعة ، والمبادئ النظرية السامية ، التى جادت بها العقول الإغريقية من قديم . وذلك أنهم لما هجروا طرقهم التقليدية الأولى فى تربية الأطفال والغلمان ، واعتنقوا نظم الإغريق ومبادئهم فى التربية ، لم يَرُقْهم ما كانت عليهِ هذه المبادىء والنظم من الصبغة الخيالية النظرية ، فتناولوها بشىء من التعديل والتغيير . وبفضل ما أوتوه من الفِطَر العملية ، هيئوا لها الوسائل والوسائط التى خرجت بها من دائرة الخيال والنظر ، إلى دائرة التنفيذ والعمل . فالفلسفة الإغريقية الخاصة بمناحى العقل الإنسانى وإدراك معانى الجمال ، والآراء اليهودية المتعلقة بمبادىء الأخلاق وأصول الدين ، قد صبغها الروم

جميعها صبغة عملية ، ووضعوا لها من النظم والأساليب ما صيرها من أكبر العوامل فى تقديم الحضارة و إسعاد بنى الإنسان .

وقد أخذ الروم فكرة اليونان الخاصة بانشاء حكومة تحالفية تضم جميع المدن الإغريقية تحت لوائها ، فتوسعوا فيها وخلقوا منها حكومة إمبراطورية عالمية واسعة النطاق ، وهذبوا لذلك نظاماً بديعاً سهّل إخراج هذه الفكرة بصورتها البديعة الواسعة إلى حيز الوجود . وقد بقيت هذه الفكرة ذات أثر فعّال فى جميع ما تلا من القرون والأحقاب ، وليس أدل على ذلك من أن هذا النظام التحالفى الواسع النطاق ، كان مطمح آمال كثير من الملوك العظام ، ولاسيما « شرلمان » و « أتو » و «نابليون» . على أن رائحة هذا النظام قد بقيت تشتم فى القاب قياصرة الروس والألمان حتى إلى عهد قريب جداً .

وما قيل فى السياسة يقال مثله فى التشريع ، فقد وضع فلاسفة اليونان مبادىء فى القضاء والتشريع ، نقلها عنهم الروم ، وأدخلوا فيها من التعديل والتغيير ما شاءوا ، ثم جعلوا منها تشريعاً عملياً ، ونظاماً قضائياً بديعاً ، هو أساس كل نظام قضائى حازم ، وأصل كل حضارة راقية فى أوقاتنا الحاضرة .

كذلك بفضل ما فطر عليه الروم من المهارة فى التنظيم والقدرة على الترتيب ، أصبح المذهب الدينى المُبغَّض إلى الناس فى ذلك الحين ، ذا نظم بديعة وأحكام سديدة صار بها أعظم مذهب يدين به الناس فى جميع أرجاء المعمور ، وهكذا قدر للمسيحية بفضل العقول الرومية أن تخلص البلاد من ضلال الهمجية ، وتخرج بها من ظلمات الجهل إلى نور اليقين .

فإذا صح أن العالم مدين لليهود بأسمى المبادىء الخلقية والدينية ، ولليونان بأرقى الآراء الفلسفية والفنية ، فإنه لا شك مدين للروم بوضع النظم و إعداد الأساليب التى هيأت للناس طرق الانتفاع العملى بهذه المبادىء والآراء السامية .

وعلى الرغم مما أصاب الروم فى أواخر أيامهم من الانحلال السياسى والاقتصادى ، وما مُنُوا به من التدهور العظيم فى التربية والأخلاق ، لا تزال مبادئهم العالية باقية ، ونظمهم الاجتماعية ماثلة ، يمجدها التاريخ فى كل حين وآن .

رجال التربية عند الروم

تناول كثير من كتاب الروم مسائل التربية وموضوعات التعليم ، وأفاضوا فى تفصيل أغراضها و بيان أساليبها . ومن هؤلاء شيشيرون . وهوراس . وچوڤينال . وسينكا وكوِنتِليان . وسُوتُونيُوس . ومركوس أُورِيلِيُوس . وغيرهم كثير . و إنا مترجمون لبعض هؤلاء تراجم مختصرة ، نشرح فيها مبادئهم الخاصة فى التربية وطرائقهم التى ارتضوها فى التعليم .

شيشيرون (١٠٦ — ٤٣ ق . م)

فيلسوف من أكبر الفلاسفة المعروفين ، وخطيب من أبلغ الخطباء المفوهين ، امتزجت فيه التربيتان الرومية والإغريقية ، وتضافرتا على تكوين أخلاقه وتثقيف مداركه ، وغذته كلتاهما بأرقى المعارف والآداب المعروفة فى عصره .

منشؤه ومرباه

ولد سنة ١٠٦ ق . م من أبوين عريقين فى المجد ، وقضى دور طفولته فى أرقى المدارس الرومية ، حيث قام بتربيته وتهذيبه رجال من أكفى المربين الذين أنجبتهم رومة فى ذلك الحين . وقد كانت العادة المألوفة بين الطبقات العالية فى رومة أن يرحل الغلمان والشبان المتعلمون إلى الممالك الأجنبية ، لاستكمال علومهم ومعارفهم واستتمام ما بدءوه من أنواع التثقيف والتهذيب ، فجرى شيشيرون على هذه السنة ، ورحل إلى أثينا ومصر وآسيا الصغرى وجهات أخرى كثيرة ، وأخذ عن أكبر رجال العلم والأدب الأثينيين ، وتخرج فى الشريعة والفلسفة والآداب ، وتوفَّر على دراسة البيان فحذقه ونبغ فيه أعظم نبوغ ، درسه فى رودس مع أَبُولُونيُوس أحد البلغاء المشهورين ، وأقدر الخطباء المفلقين فى زمنه .

سأله أبولونيوس هذا ذات مرة أن يخطب الناس باللغة الإغريقية فى موضوع اقترحه عليه ، فلبى مسرعًا ، وخطب جمهوراً كبيراً ، وما كاد يُتِم خطبته حتى ضج الناس ضجيج الاستحسان ، وأقبلوا عليه يهنئونه و يطرون بلاغته وحسن بيانه . أما أبولونيوس

فقد جلَّله الهم والاكتئاب، وبعد سكتة طويلة عميقة، رفع بصره إلى شيشيرون وقال بلهجة الآسف المحزون : « أهنيك وأُطرى بلاغتك ياشيشيرون ولكنى أرثى لهذه البلاد وأندب حظها المنكود، فإنى أرى البيان وهو البقية الباقية من آثار مجدها السابق، سيذهب عنها و ينتقل بك إلى حاضرة الروم . »

ولما عاد شيشيرون إلى رومة اشتغل بالمحاماة، وكان اكثر عمله خاصًا بالدفاع عن الأشراف والنبلاء وذوى المناصب الرفيعة المتهمين برِشوة أو خيانة أو غصب أو غير ذلك من الجرائم وكبائر الذنوب . وقد ألقى فى هذه المواقف أبلغ ما أثر عنه من الخطب التى سار بذكرها الركبان، ثم أخذ يتدرج بعد ذلك فى مراتب الدولة، حتى بلغ منصب القنصلية أسمى المناصب السياسية فى البلاد الرومية فى ذلك الحين . وفى هذا المنصب الرفيع الشأن أظهر من الكفاية والإخلاص والأمانة وحب الوطن ما ملك به قلوب الناس حتى سموه جميعًا أبا الشعب .

شيشيرون

عاش شيشيرون فى عصر كله فساد واضطراب وخيانة وفجور، ولكنه عاش حياته مخلصًا فى وطنيته، عادلاً فى سياسته، أمينًا فى سره وجهره، حرًّا فى عمله وتفكيره. أما عظمته العقلية فقد قال فيها فُورْسيث « إنها عظمة أزرت بعظمة كل إنسان عاش فى عصره » .

نعم كانت له معايب معدودة، وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه . كان كثير الزهو بعلمه، كثير التردد فى أمره، ضعيف العزم، تُعْوِزُهُ الشجاعة والإقدام، ولكنه بجانب هذا كان طاهراً نقيًا صريحًا فى عصر كله خبث ودهاء، وكان قلبه عامراً بحب الوطن، على حين كان الناس يتسابقون إلى خيانة الأوطان .

مقتله

فى أيام أنطنيوس عم الفساد واشتدت الفوضى ، فقام شيشيرون وألقى خُطَبَه الشهيرة التى عاب فيهـا سياسة البلاد ، وعرَّض فيها بزوج أنطنيوس ، وتنبأ بمصير الدولة ، وسيرها فى طريق الاضمحلال والخراب . ولما أحس أن أنطنيوس حقد عليه وقضى بإعدامه ، حاول الفرار من البلاد الإيطالية ، ولكن الجواسيس تعقبوه فأدركوه وقتلوه ، ثم حملوا رأسه ويديه إلى رومة ، وأهدوها الى أنطنيوس ، ففرح بها وأرسلها من فوره الى زوجه فُولڤيا وكانت حاقدة عليه .

قال فورسيث : « أخذت ڤولڤيا الرأس النبيل وألقته فى حجرها ، ثم أخذت تخاطبه مخاطبة الشامت الغاضب ، وترميـه بقوارص الكلم ، وتكيلُ له ألفاظ الشتم واللعن ، كأنما تخاطب حيًا ، ثم أدخلت يدها فى فيه ، وأخرجت لسانه الذى طالما عرَّض بجرائمها وأعمالها الشائنة ، وانتزعت دبوسًا من شعرها وأخذ تشوكه وتَخزُه وهى فى أشد حالات الثوران النِّسوى ، ولما أحست أنها شفت نفسها وأبردت غلتها ، ألقت به إلى الأرض فأخذه الحراس وسَمَّروه هو واليدين فى المكان الذى طالما خطب فيه الجماهير ، ونال فيه الذكر الرفيع والصيت البعيد . »

آراؤه ومذاهبه فى التربية

لم يشتغل شيشيرون بصناعة التعليم جميع حياته ، ولكنه نال مكانه فى تاريخ التربية بفضل ما بثه فى رسائله ومؤلفاته من الآراء الحكيمة والأفكار السديدة الخاصة بالتربية والتعليم . ولقد كانت مذاهبه فى عقوبة الأطفال من الحزم والسداد بحيث يدهش لها الإنسان ، ويَعْجَب كيف خطرت لمثله فى ذلك الزمن السحيق الذي عاش فيه ، وإلى القارئ مجمل آرائه فى موضوع العقوبات : —

(١) لا يسوغ للمربى أن يلجأ إلى العقوبة البدنية إلا إذا لم تنجح فى الطفل أية وسيلة أخرى من وسائل التأديب .

(٢) يجب ألا تكون العقوبة بحيث تُذِلُّ نفس الطفل أو تمس كرامته

(٣) لا يسوغ للمعلم وهو فى ثورة الغضب أن يعاقب تلميذه ، وإنما عليه أن يؤجل

العقوبة حتى تسكن ثائرته ، وحتى تتاح له وللتلميذ فرصة التفكير .

(٤) يجب أن يقف المعلم تلميذه على الأسباب التى من أجلها استحق العقوبة ، وأن يقوده بذلك إن استطاع إلى التسليم بأن العقوبة عادلة .

وجميع آراء شيشيرون فى هذا الموضوع قيمة ، وقد أخذ المربون يهتدون بهديها ويسترشدون بإرشادها فى الأيام الحاضرة ، وله فى غير موضوع العقوبات آراء أخرى لها قيمة عالية فى التربية ، نذكر منها ما يأتى : -

(١) يجب أن تبتدئ التربية من أول أدوار الطفولة ، وأن تستمر طول الحياة .

(٢) يجب أن تقوى الذاكرة بحفظ مختارات من مأثور الشعراء والكتاب .

(٣) يجب أن تكون بيئة الطفل ووسائل لهوه بحيث تساعده على أن ينشأ عزيز النفس كريم الأخلاق نامى المدارك .

(٤) يجب أن يختار للطفل فى الوقت الملائم العمل الذى يوافق استعداده الذى ظهر فيه .

(٥) الدين أساس الأخلاق ، ولذا تجب العناية بتعليم الدين .

سِنِكا (٣ ق م — ٦٥ م .)

بطل من أبطال التاريخ ، وفارس من فرسان البلاغة والبيان . ولد بقرطبة من أعمال أسبانيا قبل عصر المسيح بعامين ، وحمله أبوه إلى رومة ليتربى وينشأ هناك ، وقد عهد فى تربيته إلى طائفة من أكفى المربين وأشهرهم فى المدينة ، فبرع فى العلوم والآداب من صغره ، وأبدى فى حداثته ذكاءً نادراً واقتداراً عجيباً ثم رحل إلى بلاد الإغريق ومصر ، فاستكمل هناك معارفه واستتم آدابه ، ثم عاد إلى رومة ، فدخل ميدان الحياة واشتغل بالقانون والدفع عن الناس عند الخصومات ، فصادفه فى ذلك أعظم نجاح .

سِنِكا

ويُعنى رجال التربية بدراسة تاريخ سنكا من أجل أمرين : أولهما ما تضمنته رسائله ومؤلفاته من الآراء الناضجة فى أصول التربية والتعليم ؛ وثانيهما أنه تولى تربية الطاغية الملحد ، والعاهل المستبد ، الإمبراطور « نيرون » . كان عمر هـذا الطاغية حين قام سنكا على تربيته إحدى عشرة سنة ، وكانت خلائقه الشاذة وطبائعه الفاسدة وميوله الشريرة قد تكونت بعض التكون ، فلم يقو سنكا على علاجه ، ولم ير حيلة فى تقويم أخلاقه ، ولم يفلح فى استئصال شىء من عادات الشر وطباع السوء التى ملكت قياده ، وكان لها أسوأ الآثار وأبشع النتائج فى أيام رجولته . اعتلى نيرون عرش الإمبراطورية فاستمر على محبة أستاذه واحترامه زمنًا طويلاً ، وبقى يستشيره ويستنصحه فى أمور الدولة بضع سنوات ، واستكتبه كثيراً من الرسائل والوثائق والفتاوى الرسمية ، وكان سنكا يراعى فيما يكتب هوى مليكه وميوله ، وإن كان فى ذلك انحراف عن جادة الحق ، وحيدة عن طريق الصواب . كتب له مرة يُسَوّغ قتل الأم ، ويلتمس لذلك المخارج والوجوه ، حين رآه قد تورط فى هذه الخطيئة وقتل أمه الرءوم ، فكان ذلك من أعظم العوامل التى لوثت اسم سنكا فى التاريخ ، وجَلَّلته بشىء من الخزى والعار . ومن عرف طبائعه وخلائقه ، لم يعجب كيف صدر مثل ذلك عنـه ، فقد كان ضعيف الارادة ، خائر العزيمة ، لا ثبات ولا إقدام ولاحزم . ولعل هذا كان سِرَّ خيبته وفشله فى تهذيب تلميذه نيرون ، فقد نشأ هذا الوليد نزاعًا إلى الشر ، ميالاً إلى السفك ، تواقا إلى التدمير والتخريب . ولما تولى الملك غلا فى الظلم والبغى والطغيان ، حتى لقد كان من أمره أن أحرق مدينة رومة ، ووقف يوم إحراقهـا يشهد لهيب النيران يندلع بين المساكن ، ويلتهم الأرواح ، وهو جَذِل مبتهج كأنما يشهد واقعة تُمثَّل فوق مسرح من مسارح التمثيل .

ليس بعجيب أن نرى نيرون بعد قليل قد تنكر لأستاذه ، فسئم عشرته ومل صحبته ، وقضى عليه بالإعدام ، ولكن سنكا لم يصبر حتى ينفذ فيه القضاء الجائر ، فقد بخع نفسه ، ومات ميتة تتفق هى ومبادئه الرواقية فى الفلسفة ، وكان ذلك سنة ٦٥ بعد الميلاد .

كان سنكا أسلس أهل زمانه أسلوبًا ، وأحسنهم خطبة وبيانًا ، وأقدرهم جدلاً ودفاعًا ، وكانت له فى الأخلاق آراء سديدة تتفق هى ومطالب العصور الحديثة ، وفى كثير من مؤلفاته روح دينى قوى ، يلائم روح الدين المسيحى ، حتى لقد يظن قارئ رسائله أن للمسيح الذى كان يعاصره ويعيش فى زمنه تأثيراً قويًا فى عقله وتفكيره .

آراؤه ومذاهبه فى التربية

تتلخص آراؤه ومذاهبه فى التربية وأصول التعليم فيما يأتى : —

(١) يجب أن تكون عقوبة الطفل خفيفة معقولة .

(٢) الإنسان مطبوع على الشر ، وعلى التربية أن تصلح ما فى طبيعته من ميول الشر والفساد .

(٣) على المربى أن يدرس غرائز الأطفال وطبائعهم ، وأن يعالج كل طفل بما يلائم طبائعه الخاصة به .

(٤) لا يسوغ للمربى أن يتملق تلميذه أو أن يمتدحه بما ليس فيه ، وإنما عليه أن يعوده الصراحة والصدق والحياء واحترام من هم اكبر منه سنًا .

(٥) يجب أن تكون بيئة الطفل بحيث تزيد فى إحساسه بكرامة نفسه ، وأن تكون جميع الأمثلة التى تُعْرض عليه بحيث يكون لها الأثر الصالح فى تهذيب أخلاقه وتقويم طبائعه .

(٦) يجب أن يقتصر فى تعليم الطفل على علوم قليلة ليتعود الإتقان ويألف الطريقة الصحيحة النافعة فى التحصيل .

(٧) الألعاب الرياضية النظامية نافعة ومفيدة إذا اعتدل المربى فى أخذ الغلمان بها ، أما إذا غلا وأفرط فإنها تتعب العقول وتحول بينها وبين الاستعداد الصحيح لمدارسة العلوم .

(٨) عمل المعلم من أشرف الأعمال وأعظمها خطراً ، والمعلم المخلص الماهر يستحق من الإجلال والاحترام ما يستحقه الأب الشفيق الرحيم .

كُونْتِلْيَانْ (٣٥ — ٩٥ م)

هو أعظم رجال الروم أثراً فى إنهاض التربية وترقية شئون التعليم . ولد فى كَالاَحُرَّة من أعمال أسبانيا سنة ٣٥ بعد الميلاد ، وانتقل إلى رومة ليتربى وينشأ هناك حيث بحار العلم زاخرة ، وأسواق الآداب نافقة ، فأكب على التحصيل ودرس الفلسفة والخطابة وفنون البلاغة . ولما صلبت قناته وكملت أداته ، اختار الاشتغال بالمحاماة والدفع عن الخصوم فى أماكن الخصومات ومواقف القضاء ، ونال فى ذلك شهرة عظيمة ، ولكنه بعد قليل صدف عن هـذه الصناعة لضعف ميله إليها ، وقلة رغبته فيها ، واشتغل بصناعة التعليم ، فأسس مدرسة فى رومة ، وأدارها إدارة ناجحة عشرين سنة كاملة . وكان تلاميذها جميعًا من أولاد الأشراف والنبلاء ، ومن بينهم حَفَدَةُ أخى الامبراطور دُومِتْيَان ، ولا غرو فقد كانت ارقى مدرسة في رومة فى ذلك الحين .

رأى الإمبراطور فِسْپَازْيان ما وصل إليه كونتليان من النبوغ فى صناعته ، والنجاح فى إدارة معهده ، فغمره بأنواع العطف وصنوف التشريف ، ومن ذلك أنه جعل له راتبًا من خزانة الدولة ، ودعاه أستاذ الخطابة ، فكان بذلك أول معلم فى تاريخ الحضارة عاضدته الحكومة بالمال ، وشَرَّفَتْه بألقاب التكريم .

ولما بلغ كونتليان من العمر خمسين سنة ترك المدرسة وهجر الاشتغال بالتعليم ، وأكب على التصنيف والتأليف . ومن مؤلفاته القيمة كتاب أصول الخطابة الذى ضمنه آراءه ومذاهبه فى التربية ، ورسم فيه خطته الوافية فى تهذيب الأحداث والناشئين . ويعد كتابه هذا أعظم كتاب فى التربية خَلَّفَتْه لنا عصور التاريخ القديمة .

آراؤه ومذاهبه فى التربية

(١) يجب أن يُعْنَى كل العناية باختيار مراضع الأطفال ، بحيث يكنّ كريمات الأخلاق حميدات الطباع ، يُحسنّ اللغة ويُجِدن البيان ، فإنهن يتعهدن الأحداث فى أول أدوار الطفولة ، وهو ذلك الدور الذى تكون فيه طبيعة الحدث سهلة الانفعال ،

شديدة التأثر بما يَعرِض فى دائرة حسه . ولذلك يجب الاّ يُعْرَضَ عليه فى هذا العهد إلاّ ما هو حسن وجميل .

(٢) يجب أن يكون المعلم على جانب كبير من الكفاية والاقتدار ، وأن يكون قويم الأخلاق مرضى الفعال .

(٣) يجب ألاّ تؤجل البداءة فى تربية الطفل حتى يبلغ السابعة من عمره ، كما كانت العادة جارية بذلك ، وإنما الواجب أن تبتدئ التربية من أول يوم فى حياة الطفل .

(٤) يجب أن يبتدئ الطفل بدراسة اللغة اليونانية ، فإن اللغة اللاتينية تأتى بنفسها قسراً وبطريق التقليد والمحاكاة ، ولكن يجب ألاّ يتأخر أخذ الأطفال باللغة الوطنية كثيراً ، وإلاّ ساءت لهجاتهم ، وفسدت ألسنتهم ، وصعب عليهم النطق الصحيح بلغة البلاد .

(٥) يجب أن يتعلم الأطفال أسماء الحروف وأشكالها فى وقت واحد ، وأن يستخدم المعلمون اللُّعَبَ وجميع المبتدعات الممكنة التى تساعد فى تسهيل تعليمها . وقد اقترح كونتليان أن تصنع من العاج نماذج للحروف يَلْعبُ بهـا الأطفال ، ويستعينون بها على تعرف أشكالها .

(٦) يجب أن يبتدئ الأطفال تعلم الكتابة بإجراء أقلامهم على آثار حروف تنقش لهم فى الخشب أو تحفر على ألواح من الشمع ، وأن ينتقلوا من ذلك إلى تقليد النماذج التى تكتب لهم ، ويجب أن تكون هذه النماذج مكونة من نصائح ووصايا فى الأخلاق والآداب لتنطبع فى نفس الطفل ويتأثر بها من الصغر .

(٧) يجب أن يسير المعلم مع الأطفال فى دروس المطالعة على مَهَل ، وألاّ ينتقل بهم من جزء إلى ما بعده حتى يكونوا قد أتقنوا الجزء الأول كلَّ الإتقان .

(٨) يجب ألاّ يدخر المعلمون وسعًا فى استخدام اللُّعَب ووسائل اللهو والانتفاع بها فى أغراض التربية والتعليم .

(٩) يجب أن تتخذ الحيطة الكافية حتى لا ينشأ الأحـداث كارهين التعليم منصرفين بنفوسهم عنه .

(١٠) يجب على المعلم ألاّ يقسو على التلاميذ فى نقد أعمالهم، ومما يؤثر عن كونتليان فى ذلك قوله « كثيراً ما كنتُ أرى منشآت التلاميذ فأقول إننى راض عنها قانع بها الآن، ثم يأتى وقت أذمها ولا أقبل أمثالها من التلاميذ » .

(١١) على المربى أن يدرس طبائع تلاميذه وخواص عقولهم وما خلق فيهم من أنواع الاستعداد والكفايات، كل على حدة، حتى يستطيع أن يأخذ كل تلميذ بما يلائمه من أنواع العلاج وطرائق التهذيب .

(١٢) التربية المدرسية العامة خير من التربية الإفرادية فى المنزل، فإن الأولى لا يتعرض فيها الطفل لكثير من الشرور والأخطار كما يتعرض فى الثانية . ومن هذه الشرور الأثرة وحب الترف واعتياد البَذَخ وقلة الرغبة فى التعليم . وفوق ذلك فإن الفرص التي تتاح فى المدرسة لتقويم أخلاق الطفل واستمالته إلى الدرس والتحصيل لا يتاح مثلها فى المنزل ، فعِشرة التلاميذ، واتخاذ الأصحاب ، والمنافسات العلمية ، والأمثلة الصالحة الكثيرة فى الأخلاق ، كلها وسائل ذات بال فى تهذيب النفوس وتثقيف العقول ، ولا مكان لها إلا المدارس ومعاهد التعليم .

(١٣) العقوبات البدنية غير سائغة ، فإنها عقوبات العبيد ، ولا تليق بمن ولدتهم أمهاتهم أحراراً . وقد تقدم لنا ذكر ذلك فى غير هذا المكان .

(١٤) إذا انتقل التلميذ إلى المدارس الثانوية وجب عليه أن يدرس النحو والصرف والإنشاء والموسيقى والهندسة وعلم النجوم والآداب ، ويجب أن تبذل العناية الكافية فى قراءة كتب الآداب اليونانية واللاتينية قراءة صحيحة ، وأن تُنْقَد معانيها وأساليبها نقداً صحيحاً حازماً ، وأن تشرح كِناياتها وجميعُ ما يَعْرِض فيها من الإشارات إلى الحوادث التاريخية أو الخرافات الوثنية .

(١٥) الخطابة أرقى درجات التربية والتهذيب .